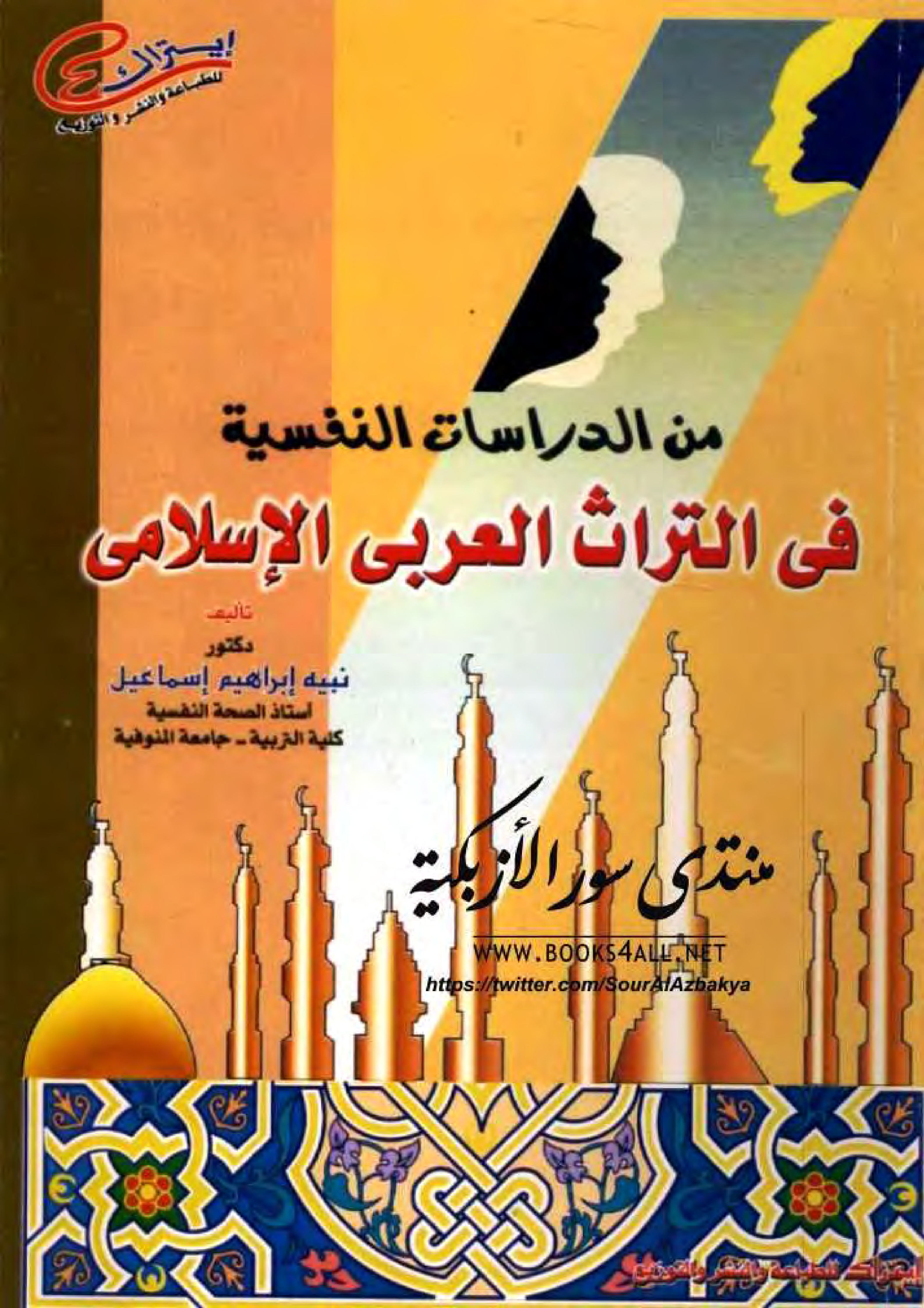

إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع
من الدراسات النفسية
في التراث العربي الإسلامي
تأليف
دكتور
نبيه إبراهيم إسماعيل
أستاذ الصحة النفسية
كلية التربية - جامعة المنوفية
منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya


منتدى سور الأزبكية

من الدراسات النفسية

فى

التراث العربى الإسلامى



دكتور

نبيه إبراهيم إسماعيل

أستاذ الصحة النفسية

كلية التربية - جامعة المنوفية

إيتراك للنشر والتوزيع

طريق غرب ألماظة - مصر الجديدة

رقم الإيداع

٢٠٠١/١٨٤٣٩

الترقيم الدولى I.S.B.N.

977-5723-61-2

الطبعة الأولى ٢٠٠١

ايتـــراك للنشـــر والتـــوزيع

طريق غرب مطار ألماظة عمارة (١٢) شقة (٢) ص.ب : ٥٦٦٢

هليوبوليس غرب – مصر الجديدة

القاهرة ت : ٤١٧٢٧٤٩ فاكس : ٤١٧٢٧٤٩

إهـــــــــــداء

إلي كل من يتطلع إلي غد أفضل علي أساس قوي متين ..

إلي كل من يحب الإنســـان أيا كان هـــذا الإنســـان ..

أهدي هذا العمل .. داعيا الله سبحانه وتعالي أن ينفع به الناس جميعـــا.

أ.د/ نبيـــه إبراهيم إسماعيل

وما من كاتب إلا سيفني

ويفني الدهر ما كتبت يداه

فلا تكتب بيدك غير شيء

يسرك في القيمة أن تراه

مقـــدمة:

إن أى مجتمع يتطلع إلى تغيير ظروفه ، وأوضاعــه إلـــى مــا هــو أفضل ، أو يريد أن ينتقل من طور حضارى إلى طــــور حضـــارى جديــد متميز؛ فإنه من الضـــرورى ، بل مـــن الـــلازم أن يبــدأ بدراســـة واقعــه الحضارى والثقافى، وفحص ماضيه فحصاً دقيقاً ، وذلك لتحديد مســـــتقبله على أساس صحيح سليم، ولا يمكن أن يتحقق التطور - الذى تشـــرأب لـــه الأعناق ، وتحلم به الأجيال - الذى يتم عن طريق النمو المطرد المبنى على أساس قوى متين دون الأخذ فى الاعتبار بعد الماضى ، ودراسة حضارتــه ، لأن أى نوع من أنواع التطلع والطموح لابد أن يكون له أساس يمكنه مـــن الوصـــول إلى تحقيقه .

ومن الملاحظ أنه عادة ما يبدأ هذا الأمر بإعـــادة النظـــر هــــذه ، فيحدث ما نطلق عليه الصراع بين القديـــم والحديـــث ، أو بيـــن الأصالـــة والمعاصرة . ويؤكد كثير من المفكرين أن هذا النوع من الصـــراع حتمـــى الحدوث ، ويثبتون صحة وجهة نظرهم، بواقع التطور الحضارى لكثير مـــن المجتمعات. ويشيرون إلى أن السبب فى مثل هـــذا الصـــراع يرجـــع إلـــى وجـــود اختلاف كبير بين الانتقالات الحضارية من مجتمع إلى آخر . الأمـــر الذى أدى إلى حتمية الصراع السابق الذكر .

والدارس للتاريخ يجد أنه يحدثنا عن هذا الصراع ، وكلنا يعـلم مـــا حدث من ذلك فى مختلف نقلات الحضارة العربية الإسلامية فى عصورهــــا المتعددة ، ونجد مثل هذا النوع مـــن الصـــراع فـــى مختلـــف التطـــورات

الحضارية فى المجتمعات الأوربية . ونلاحظ - أيضاً - أنه يختلف مدى حدة الصراع من بيئة حضارية إلى بيئة حضارية أخرى ، حسب ما لدى أفراد المجتمع من المستوى المعرفى والثقافى ، والنمو المطرد على أساس ثقافى صحيح .

كما أنه يبدو أن ما يحدث من صراع فى أيامنا هذه بين القديم فى حياتنا الثقافية والفكرية المعاصرة ، ليس صراعاً بين فكر عربى اسلامى قديم ، وفكر عربى اسلامى حديث ، إنما هو صراع بين التراث والفكر الغربى المعاصر ، وبين فكرنا العربى الاسلامى ، وهو صراع دعت إليه الظروف التى مر بها العالم العربى والاسلامى . بل أدت إلى استمراريته ، ونموه وتطوره ، بهدف إفهام أجيالنا بان العودة إلى تراثنا العربى الاسلامى يعد تخلفاً وجموداً فكرياً . وفى الوقت نفسه نجد أن ظروف العالم الغربى قد دعته إلى الانطلاق والتحرر ، بما أدى إلى حدوث تقدم مادى ملموس . وهذا التقدم لم يلمسه عالمنا العربى الاسلامى فحسب . بل سعى الجانب الغربى إلى غزو عالمنا الثقافى والفكرى به ، وأصبح له تأثير شديد على عقول أبناء الأمتين العربية والاسلامية ، إلى الحد الذى أثر تأثيراً كبيراً فى كل مايصدر عنا من أنماط السلوك البشرى. بما يدعو ، ويساعد على محو الأصول الثقافية والفكرية . أى القضاء على أصالتنا ، وما أسفرت عنه من تميز الشخصية العربية الإسلامية عن غيرها من شخصيات العالم .

وقد أسهم فى تعزيز تأثير الحضارة الغربية على سلوك أفراد المجتمع

العربى الاسلامى ما وصل إليه الغرب من قوة اقتصادية وعلمية وتكنولوجية، فضلاً عن نفوذ القوة العسكرية والسيطرة السياسية التى ظهرت فى الآوانة الأخيرة فى هذا العصر ؛ ناهيك عن تطور عملية الاتصالات ، وإمكانية رؤيته فى مختلف القنوات الفضائية ، وما تبثه من أطر ثقافية مختلفة ، ومتباينة عن نوعية وثقافة الحضارة الغربية. مما أدى إلى عمق تأثير هذه الثقافة بعد غزوها لكثير من دولنا ومجتمعاتنا. الأمر الذى أتى بثماره ؛ بإعجاب أفراد مجتمعاتنا بالنماذج الثقافية والفكرية التى تبثها هذه الدول عبر القنوات الفضائية إلى الحد الذى جعلهم لا يدركون ماعداه من جوانب ثقافية وفكرية أصيلة أصالة الزمن ، وعميقة عمق التاريخ .

وظل هذا الإبهار بالثقافة الغربية ، والإعجاب بها إلى الحد الذى خيم على كثير من عقول أجيالنا ، فأصبحوا غير قادرين على رؤية ما لديهم من تراث كان سبب تقدم ونمو هذه المجتمعات فى فترة زمنية سابقة . بل أنه لم يعد لديهم الدوافع القوية للبحث والتنقيب عنه فى مختلف الكتب والمراجع العربية والإسلامية التى خلفها أجدادنا العلماء ، والتى شهد لهم الغرب بنبوغهم ، وابتكاراتهم . ونتيجة لهذا الإنبهار فإن أفراد المجتمع لا يستطيعون التمييز بين ما هو غث وثمين من هذه الثقافة ، وما يصلح لهم ، وما لا يصلح لهم . حيث تنعدم الرؤية الصحيحة ، وعدم القدرة على الانتقاء والاختبار لكل ما يسهم فى إحداث التوازن فى نمط شخصيتهم على أساس من ثقافتهم الأصيلة .

إن المتتبع للمجتمعات التى انبهرت بالثقافة الغربيـــة ، نجـد أنـــهم لايحترمون ، ولايقدرون ثقافتهم . بل ويقللون من قيمتها وأهميتها . ومــن هنا يشعرون بضآلتهم أمام الثقافة الغربية . الأمر الـــذى يدعوهــم إلـــى محاكاتها دون إمعان النظر فيما يفيدهم منـــها أو يضرهــم ، وكذلــك دون النظــر فى نوعية القيم المصاحبة ، والمكونة لهذه الثقافة . وعندئذ تصبـح هذه الثقافة - الغربية ، والبعيدة وغير الملائمة للاتساق مع ثقافتنا - إطـــاراً مرجعياً لكثير من أنماط سلوكنا ، وقراراتنا ، وما نصدره من أحكـــام علـــى مفاهيم التقدم والرقى ، أو التخلف والرجعية . مع أن المفـــروض ، ومـــا ينبغى أن يكون الإطار المرجعى للحكم على الثقافة الواردة من أية جهة مــن جهات العالم المحيط بنا هو تراث وثقافة الأمة العربية الإســـلامية ، حتـــى يمكن انتقاء الجديد النافع، والجيد الذى من شأنه أن يسهم فى نمو وتقـــدم الفكر العربى الإسلامى .

إن الذى لاشك فيه أن أى نمو أو تقدم لا يمكن أن يتم عن طـــــريق إتاحة الفرصة للتأثير والتأثر بيـــن الحضـــارات المختلفـــة ، وأن الإنســـان بقدراته وإمكاناته العقلية ، وحســـه المرهف الدقيق يستطيع أن يـــدرك أن هـــناك قدرا مشتركاً بين الناس جميعاً سواء كـــانوا فـــى أمتنـــا العربيـــة الإســـلامية ، أو فى أمم الغرب ؛ وأن مثل هذا القدر المشترك هـــو الـــذى يتيح إمكانية تبادل المعارف ، وإحداث الاتصال ، وإمكانية الاقتباس ؛ حيث إنه لا توجد حضارة فى العـــالم كتب لها البقاء والاستمرار والنمـــو ، إلا إذا كانت قادرة على التأثير والتأثر .

والمدقق النظر فى حضارات العالم الأصيلة ؛ يجد أنها قد استطاعت أن تنتقى ما ينبغى ، أو ما يسمح به لإحداث التأثير فى حضارتها ، وأنها كانت على يقظة تامة مما لا ينبغى أن يسمح به ، أو يمر بأى مدخل من المداخل ، أو صورة من الصور حتى لا يكون التأثير سلبياً. وعندئذ نلاحظ أنها قد استوعبت باقتدار ما وصلت إليه الحضارات الأخرى من إنجازات - ليس فقط لتقف عنده - بل لتتجاوزه إلى إنجازات تنبىء عن ذاتيتها التى تميزها عن غيرها من الحضارات . حيث إنه لا يمكن - بأية حال من الأحوال - أن تتعدى الحضارة المستوعبة إلى الإنجاز ، والابتكار والتميز إلا إذا كانت لها نظرة ذاتية ، معتمدة على ما لديها من أسس ثقافية عميقة أصيلة ، ذات نظرة ناقدة فاحصة لكل ما يرد عليها من حضارات غيرها . فضلاً عن اعتمادها على الموضوعية .

وعلى أساس ما تقدم من أصول يمكن لحضارتنا أن تدرك قيمة كل بعد حضارى ، أو ثقافى وتأخذ منه ما يناسبها ، وما يتسق ومكونات حضارتها الذاتية حتى لا يكون هناك تناقض أو تضارب فى نمط شخصياتها، والمتعمق فى دراسة حضارتنا العربية الإسلامية . يجد أن تراثنا غنى بهذه المكونات انتقتها عقول أبناء أمتنا الأمينة الواعية ، المدركة للعائد الفكرى من اقتباس هذه المكونات لتحقيق مستوى أفضل من النمو والتقدم لحضارتنا . ولهذا نجد أن الحضارة العربية الإسلامية كانت قادرة على مواكبة التقدم الحضارى الحادث فى مختلف حضارات العالم .

ويحدثنا التاريخ عما تقدم من قدرات الحضارة العربية الإسلامية

عندما استوعبت باقتدار ما ينفعها من غيرها - مع الحفاظ على نمط شخصيتها من الحضارة الإغريقية اليونانية دون المساس بذاتيتها المتفردة . وهذا من شأنه أن يجعلنا نثق فى تراثنا وثقافتنا ، وما تركه الأجداد من عمق حضارى ، لا يخشى عليه من عملية الاتصال بغيره من الثقافات الأخرى أو التأثير على الذاتية التى يتميز بها ، ومن هنا لا ينبغى أن نصاب بالانبهار حال قراءتنا لموضوع جديد ، ولا نعتمد اعتماداً أساسياً على التراث الأوربى فى كل مجالاتنا العلمية ، والثقافية والفكرية، ذلك لأن تراثنا يحتوى على كثير من أسس العلم والمعرفة . بل ويوجد به فكراً جديداً متميزاً نظراً لانتمائه للفكر الاسلامى ، ولهذا لا غرو أو عجب أن نجد فى تراثنا كثيراً من البحوث والدراسات النفسية .

إن التراث الإسلامى ليس تراثاً جامداً أو للعرض فقط كالتراث الفرعونى أو الصينى ، أو التراث الهندى أو البهلوى إلى غير ذلك من المواريث الثقافية التى فقدت فاعليتها فى الحياة المعاصرة ، وإن ظلت ثمارها مكتوبة ، ومدروسة ، ومقروءة ومسموعة إلى اليوم . لأن التراث العربى الإسلامى أشد ارتباطاً بحياتنا ، وأكثر استمرارية وتأثيراً فى مختلف مجالات الحياة فى عصورنا المختلفة ، وقد اصبح كذلك من خلال قناتين كبيرتين عميقتى التأثير فى واقعنا الذى نعيشه كل يوم؛ وهما العقيدة الدينية، بتأثيرها الواضح الجلى فى كل ما يصدر عنا من أقوال وأفعال وسلوك ، ولغتنا العربية التى تعتبر وعاء الفكر ، ووسيلة التفاعل والاتصال والتفاهم بين الشعوب العربية وكثير من الشعوب الإسلامية .

وإذا كان التراث العربى والاسلامى يتميز بهاتين الركيزتين ، وينطوى على ذلك الفكر النامى المتقدم الذى يبدو جلياً فى كثير من ميادين العلم والمعرفة ، وليس فقط فى مجال الدراسات النفسية . فإن هذا الثراء المتعدد يجعله أجدر من أى تراث آخر للاعتماد عليه ليكون منطلقاً فكرياً متميزاً فى مجال علم النفس ، ذلك لأنه يعبر بصدق وأمانة ، وعمق عن واقع نفسية الإنسان العربى والمسلم المؤمن بالله الواحد الأحد ، والذى ينطلق من هذه العقيدة الأبدية ، ذات المنهج الواضح المعالم ، والمحدد الأبعاد والأهداف.

بالإضافة إلى ما تقدم ، فإن المتتبع للدراسات النفسية فى تراثنا العربى الإسلامى ، يجد أنه قد تناول عديداً من الموضوعات ، والقضايا ، والمشاكل النفسية - منذ زمن بعيد - التى درست وبحثت فى مؤلفات الغروب وننظر إليه على أنه كشف جديد ، وفكرة متميزة ، وإضافة لا مثيل لها، مع أن التراث العربى الاسلامى يشير إلى سبقه وريادته فى هذا المجال. فضلاً عن دقة تناول الفكر العربى الإسلامى لكثير من المصطلحات المستخدمة فى مجال علم النفس ، والتى تشابهت - إلى حد كبير - مع ما وصل إليه الفكر المعاصر . كما أن الفكر العربى الإسلامى يتميز فى أى مجال من مجالات العلم والمعرفة بأنه غير مكرر ، بل نجد أنه يتجدد فى كل مرحلة زمنية تبعاً لما يحدث من تغيير ، وتبديل ، وتعديل ، وزيادة فى كل من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى يمر بها عبر الزمن ، على أساس الفهم الواعى للمفكرين العرب المسلمين لأن التكرار لا يحدث نمواً ، ولا تقدماً .

هذا ؛ ولابد من الإشارة هنا إلى أنه ليس من الطبيعى أو المنطقـــى أو المعقــول أن يتطابق ما توصل إليه علماؤنا المسلمون فى مجال الدراســات النفسية . مع ما توصل إليه الفكر الغربى تطابقاً تامــاً ، ذلــك لاختـــلاف المنحى والمنطلق الفكرى والعقائدى والفترة الزمنية الذى أنجز فيها مثـــل هذا الفكر ، لأن أسباب هذا الاختلاف يجعل التطـــابق أمــراً بعـــيداً . وإن كانــت هناك بعض الموضوعات التى يظن أنها تتطابق إلا أن هـــذا الظـــن مبنى على أساس النظرة السريعة غير المتأنية ، ولذلك ليس من المنطـــق الصحـــيح السليم أن نعقد مقارنة لنبرز الفكر الذى نقله إلينا التراث العربـــى الاســـلامى فى مجال الدراسات النفسية - على فكر التراث النفسى الغربـــى . إنما القصد تنبيه الأذان والادراك إلى ما فى التراث العربى الإسلامى مـــن كنـــوز مازالت فى بطون المؤلفات والمراجع العربية الإســـلامية . والتـــى تمـــت بصلة وثيقة بمجال الدراســـات النفسية ، وإن لم توضع تحت هـــذا التصنيف فى زمن تأليفها .

ولا غرو فى هذا ، لأن القرآن الكريم قد نزل محدثـــاً عقـــل ونفســـية الإنسان ، وأنزل على الرسول " ﷺ " ليغير اتجاهات النـــاس مـــن عقـــائد وضيعة موروثة عبر مئات السنين إلى عقيدة التوحيد بالله الواحد الأحـــد الفرد الصمد ، وأن قدرة الرسول "ﷺ" على تحقيـــق هـــذا مـــن خـــلال القرآن الكريم ؛ إنما تدل دلالة واضحة بينه لاشك فيها على أن مـــا تركـــه الأجداد والآباء من تراث دينى لا يخلو أبداً من عديد مـــن الدراســـات فـــى مجـــال علم النفس ســـواء كانت مرتبطـــة بالجـــانب العقـــلى أو الجـــانب النفسى .

هذا : ومن يدقق النظر فى الأحكام الشرعية ، يجد أنها تضع فى اعتبارها الأساس النفسى حال إصدار الحكم . حيث يعتبرون شروط التكليف الأساسية كالبلوغ؛ وما يتضمنه من مراعاة مستوى النضج وعلم بالتكليف ، وفهمه ، وضرورة الالتزام بالنظم والقوانين والقواعد المنظمة للحياة كما أرادها الله سبحانه وتعالى . والعقل ، وما يتضمنه من القدرة على الإدراك الواعى السليم لمناط التكليف الذى أقرته الشريعة الإسلامية .

كما أن الأساس النفسى يشكل ركناً أساسياً فى بحوث أصول الدين والعقيدة ؛ ذلك لأن مختلف المسائل ذات الارتباط بالاعتقاد ؛ من إيمان وكفر، ونفاق متعلقة تعلقاً كبيراً بالجانب النفسى والعقلى للإنسان . وقد بينت قصص إسلام الصحابة - رضوان الله عليهم - الأوائل أن أحوالهم النفسية ، ومستوى قدراتهم على الادراك والفهم كانت ذات أهمية كبيرة عند إقبالهم على الإسلام .

والقارئ لكتب التفسير والأدب ، والسلوك ، يرى أنها تحليلات دقيقة للنفس البشرية فى مختلف أحوالها ، وظروفها ، وتقلباتها ، وتشير كثير من كتب التراث العربى الإسلامى ككتب ابن تيمية ، وابن القيم ، والحسن البصرى ، وغيرهم إلى هذا الجانب . حيث نجد أنهم قد تركوا لنا كماً هائلاً وكبيراً فى مجال علم النفس فى معظم كتبهم التى ألفوها .

ومن يراجع كتب شرح الحديث النبوى الشريف يجد أنها تشير إلى تحليل دقيق للنفس الإنسانية ، وتوضح نوازعها ، وكيفية تقويمها ، وفى

الوقت نفسه تقدم نماذج مختلفة ومتعددة للنفس الإنسانية سواء كانت اعتنقت الإسلام أم لا .

ـ ولهذا فإن ما أقدمه فى هذا الكتاب يعد دعوة لكل المشتغلين فى مجال الدراسات النفسية إلى البحث فى التراث العربى الإسلامى ، بهدف كشف واستخراج مافيه من أصول هذه المعرفة التى تتفق ومنهج العقيدة الإسلامية ، والتى ينبغى أن تنال اهتمام المشتغلين فى علم النفس ، وأن تكون موضع دراسة وبحث وتقدير واحترام ، حتى يمكن الوصول إلى الأسس التى تعيننا على الانطلاق فى مجال البحث على أساس من الفكر الإسلامى الأصيل الذى أسهم فى كل من مجالات العلم والمعرفة ، واستمد منه الغرب أسس البحث العلمى ، والالتزام بالدقة الفائقة فى مجال الدراسة فى مختلف ميادين المعرفة .

كما ينبغى ألا ينظر إلى هذا التراث على أساس أنه معرفة متخلفة فى هذا المجـالناشر : مكتبة الأنجلو المصرية ، أو أنه يمثل أثراً من الماضى أنقضى وقته ، وانقطع أثره . بل يجب أن ينقب عنه بفكر واع ، وإيمان عميق لاحيائه إحياءً لنفوسنا ، وتقديراً لعقولنا ، واحتراماً لأنفسنا ، وإثباتاً لذواتنا . ولهذا يجب ألا ننظر إليه بدافع الحماس الدينى الطارىء الذى سرعان ما يزول بزوال المؤثر. بل لابد من النظر فيه بعمق المؤمن بأنه يحمل فكر ، وقيم ، وأنماط سلوك يمكن أن تحقق لحياتنا أنسب الأجواء والأساليب التى تعيننا على مسايرة واقعنا المعاصر دون تخبط أو انحدار يؤدى بنا إلى سطحية وانحطاط الفكر. ذلك

لأنه كلما كانت جذور الإنسان الفكرية ثابتة ، مكنته من الانطلاق السليم الذى يتحقق عن طريقه أفضل ما يمكن أن يتمناه الإنسان فى حياته المعاصرة .

ومن أجل هذا نجد أن كثيراً من المفكرين الذين درسوا فى الغرب يقدمون النصح بضرورة إعادة النظر إلى التراث العربى الإسلامى بحيث تكون هذه النظرة عادلة فلا تكون " نظرة*القاضى إلى المتهم ، أو نظرة الطبيب إلى المريض . بل يجب ان تكون نظرة متسمة بالإنصاف الذى هو أساس الاستجابة الصحيحة "، وهذا ما دعانى أن أكتب مقدمة هذا الكتاب - على هذا النحو - تنبيهاً ، وبنياناً ، ودعوة لجميع المشتغلين فى مجال علم النفس لتوجيه أنظارهم ، وفكرهم إلى تراثنا العظيم ؛ ليكون أساس الانطلاق الفكرى ، نبدأ منه لتأصيل فكرنا النفسى ، وننتهى إليه مسجلين هذا الفكر مهما كلفنا هذا من جهد ووقت ، ومعاناه . أما أن نبدأ من غيره ، وبدونه لنفرض عليه ، أو نلوى فكره لنثبت أنه أسبق فى مجال علم النفس ؛ فهذا ما لا يفيد ، أو يبنى ، أو يسهم فى تقدم هذا العلم .

وليس معنى ما تقدم أن نغلق عقولنا على فكرنا وحده ، ونرفض فكر الآخرين فى مجال علم النفس ، مكتفيين بما لدينا . بلى يعنى أن ننطلق منه، لننتهى به مؤشراً لأصالة فكرنا ، إثباتاً لذاتنا ، مع ضرورة الاطلاع على فكر الآخرين ، ودراسته دراسة عميقة متأنية ، متتبعين مراحل نموه

---

* عبد الحكيم حسان . الدراسات الإسلامية فى التراث العربى ، بحث ألقى بالنادى الثقافى بمكة المكرمة .

وتطوره، وأن نأخذ منه ما يمكن أن يفـيد فى تنميـة فكرنا النفسـى بمـا لا يؤثر على أصالته وتميزه . وليس هذا بغريب على علمائنا فى مختلـف ميادين المعرفة ، لأنهم قد استعانوا بمواريث ثقافية أخرى علـى أسـاس من الفهم الحر، والاختيار السـليم ، والانتقـاء الجيد ، ولم يكن موقفـهم يتسم بالرضوخ أو الاستسلام لثقافة غيرهم .

وقبل أن انتهى أريد أن أعيد ما ذكرته فى بداية المقدمـة ؛ وهـو أن تراثنا العـربى الإسلامى يزخر بكثير من الدراسات النفسية التى يجـب أن نقبل عليها بعقول متفتحة واعية مدركة عما نبحث وما نريد ، مسـتخدمين فى ذلك أحدث مناهج البحـث العلمـى ، بشـرط ألا نـدس فيـه مـن المصطلحات الحديثة التى لا تتفق ومنطلق الفكر الإسلامى التى قد تحـدث خللاً فى تفكيرنا ، وتبعدنا عن ديننا ، وتؤثر على شخصيتنا تاثيراً سـلبياً . بل قد تؤدى إلى فقدنا لشخصيتنا الأصيلة المتميزة .

من الدراسات النفسية
فى
التراث العربى الإسلامى

الدراسة الأولى

الدراسات النفسية
عند
ابن مسكويه
(٣٣٠/ ٤٢١ هـ)

تقديم:

من الأمور التى دعت الباحث إلى محاولة بيان وتوضيح ما ورد فى كتاب تهذيب الأخلاق " لمسكويه " ما ذكره فى هذا الكتاب من أنه لابد من التعرف على نفوسنا ؛ ماهى ؟ ولأى شىء هى ؟ ولأى شىء أوجدت فينا ؟ وهو بذلك يعنى البحث فى كنه النفس وحقيقتها ، والتى تعتبر محوراً أساسياً من محاور علم النفس . وهو فى بحثه هذا يسعى إلى التعرف على أسباب تزكيتها ، وإخفاقها وضعفها . فضلاً عن معرفة العوائق التى تحول دون كمالها .

كما أنه يسعى - أيضاً - إلى معرفة الإنسان وذلك عن طريق دراسة فعله . حيث يرى أن فعل الإنسان فعلاً مركباً ، وأن الشخصية الإنسانية ليست شخصية بسيطة ، لأنها نتاج عدد من الأبعاد والمتغيرات التى قد تسهم فى تكوين جوهره ، وبالتالى تساعدنا على معرفة حقيقة معدنه ، وعندئذ نستطيع أن نفهم الإنسان فهماً حقيقياً عن طريق مختلف ما يصدر عنه من أفعال وسلوك .

هذا ؛ ويرى " مسكويه " أن أفضل الناس أقدرهم على إظهار فعله الخاص. أى الفعل الذى يتفق وجوهره المتميز عن غيره من الناس ، والذى يلتزم به بغير تلون ، أو إخلال فى وقت دون وقت آخر ، وهو فى حديثه عن الشخصية الفاضلة من الناس ، وما يميزها من سلوك وأفعال تعينه على معرفة الشخصية - معتمداً فى ذلك على بيان الشخصية بنقيضيها- يبين أن كمال الشخصية يعتمد على عاملين أساسيين يطلق

عليهما - كمالان- أحدهما يستمد من القوة العالمة ، والآخر من العاملة؛ حيث إن القوة الأولى تدفع الإنسان إلى اكتساب المعارف والعلوم ؛ أما الثانية تدفع الإنسان إلى تنظيم الأمور وترتيبها ، وهو يعتمد فى فهم هذا على ما قدمه كثير من الفلاسفة الذين تناولوا بالنظر والفكر هذه النقطة ، وتحدثوا عن هذين العاملين من الكمال .

ويحدد " مسكويه " الهدف من كتابه - تهذيب الأخلاق - (بأن نجعل لأنفسنا خلقاً تصدر به عنا الأفعال كلها جميلة) وهى بذلك تكون (سهلة علينا لا كلفة فيها) ومن هذا يفهم أن " مسكويه " قد اهتم بالسلوك الصادر عن الإنسان ، وهو يرى أن الأفعال والسلوك السوى الصحيح لا يمكن أن يتم إلا بترتيب تعليمى . أى معرفة ملكاتها ، وقواها ، وغايتها ، التى استطاع بها الإنسان أن يصل إلى المكانة والرتبة العالية .

هذا ؛ وهو يسعى - أيضاً - إلى محاولة التعرف على العوامل التى تعوق وصول النفس إلى هذه المكانة العالية ، وهو بذلك كله يتصدى لدراسة الإنسان ، عن طريق دراسة كل ما يصدر عنه من أفعال وأقوال وأعمال .

تعريف بمسكويه :

هو أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب " بمسكويه " ، وأصله من الرى ، وقد سكن أصفهان ، واشتهر بالخازن ، لأنه كان أميناً على خزانة كتب ابن العميد ثم كتب عضد الدولة ، ابن بويه ، وقد توفى فى اليوم التاسع من شهر صفر عام (٤٢١هـ الموافق ١٠٣٠م) .

وقـد أشـار عبـد العزيـز عـزت[1] (١٩٤٦) أن مرجوليـوث Margoliouth وهو أحد الباحثين الذين تصـدوا لدراسـة مؤلفاتـه قـد تمكن من إثبات عام مولده حيث اشار إلـى أنـه ولـد عـام ٣٣٠هـ ، وإنِ كان ذهب بعـض الباحثين إلى أنـه ولـد عـام ٣٢٥هـ، ونلاحـظ أن الفـرق بيـن الزمنين بسـيط . ممـا يشـير إلـى إثبـات أحدهمـا دون الآخـر .

ويعتبر " مسكويه " من فلاسفة القرن الرابع الهجرى ، حيث كان مـن العلماء الراسخين الآخذين للعلوم من مصدريها ، النقل والعقل ، وقـد قـرأ كثيراً من المؤلفات اليونانيـة ، وخاصـة أرسـطوطاليس ، كمـا اشـتغل بالكيمياء، والفلسفة والمنطق ، والأدب ، والتاريخ ، وقـد قـرن الحكمـة بالشريعة فى كل تقريراته العلمية . حيث كان كثيراً مـا يطلـب الرجـوع للشريعة .

وقد أجمع كثير ممن اطلعوا على مؤلفات " مسـكويه " أنـه يتمـيز بمفرداته اللطيفة ومعانيه الجيدة المرتفعة ، وقدراته على النقـد ، وأن لـه مشاركات فى العلـوم الحديثـة والقديمـة ، ومنـاظرات ، ومحـاضرات ، وتصنيفات عديدة فى العلوم .

وقد ألف كثيراً من الكتب منها ، كتاب آداب العرب والفرس ، والفـوز الصغير فى أصول الديانات ، وفوز النجاة ، وكتـاب السياسـة ، ومختـار الاشعار ، ونديم الفريد ، ومختصر فى صناعة العدد ، وكتـاب الأشـربة ،

---

[1] ابن مسكوية : فلسفته الأخلاقية

وتجارب الأمم ، وكتاب العيون ، والحدائق فى اختبار الحقـــائق ، وكتـــاب أنس الفريد .

ومن الكتب التى لها صلة مباشرة بدراسة النفس ، كتاب " فى اللـذات والآلام" والذى يرى فيه أن اللذة راحة من ألم ، وأن اللذات كلها عند الملتـذ تحدث بعد آلام معينة تلحق بالإنسان . أى أن اللذة تعتبر خلاص من أذى .

ويشير فى هذا الكتاب إلى أنواع اللذات ، كلذات الجســم التى تتمثــل فيما يشبع الحاجات الأولية للإنسان ، كالأكل والشرب والجنــس . ولـــذات العقل والتى تتمثل فى الإدراك العقلــى للإنســـان والـــذى عنـده الإدراك الأكمل له .

كما تشير المؤلفات التى تناولها " مكسويه " بالدراسة والبحث أن لـــه رسالة فى "جوهر النفس والبحث عنها " وفيها يكتب عن أهمية النفس فـــى سائر الكائنات المختلفة ، على أساس أنها سبب الحركة والحياة ، ويتســاءل - أيضاً - فى هذه الرسالة عن حقيقة النفس ، هل هى عنصـــر واحــد لـــه أجزاء وقوى أم متعدد .

وله رسالة أخرى هى " كتاب العقل والمعقول " ، وأخرى يكتب فيـــها مقالة فى النفس والعقل ، وهى رسالة فى إثبــــات الصـــور الروحانيـــة. ويتناول فيها كيفية تحرك الأشياء الروحانية ، ويرى أنها تحرك ذاتها ، ثـــم تحدث عن جوهر النفس وجوهر العقل .

وهذه الرسائل ذات صلة وثيقة بعلـــم النفــس بمفهومـــه العصـــرى

الحديث. وإن كانت قد كتبت من منظور فلسفى فى عصر " مسكويه " ولـذا نجد أنه من يدقق ، ويمعن النظر بعمق شديد ، وفكر ثاقب ، أنها محاولـة منه لبيان وتوضيح هذه الحقائق النفسية .

هذا : كما ألف كتباً فى طهارة النفس وترتيب السعادات ، وفى الأخلاق ، وكتاب تهذيب الأخلاق ، وتطهير الأعراق ، وهو الكتاب الذى وقع عليه الاختيار لدراسته وبحثه لبيان ما يتضمنه من مجالات أو موضوعات أو عوامل ذات الارتباط بمجال علم النفس ، وذلك لأنه قد أشار إلى الغرض من تأليفه وهو أنه يسعى للحصول على خلق يصدر عن النفس يتمثل فى الأفعال الجميلة للإنسان ، وهو يرى أن هذا يمكن أن يتم عن طريق التعليم بعد معرفة نفوسنا . وهو يكتب لنا عن كل ما تقدم من نقاط بحث ودراسة يشير إلى أنه انتفع بخبرته وتجاربه الشخصية فى الحياة ، وخاصة ما عاناه من انحطاط الأخلاق فى عصره .

الطبيعة الإنسانية وجوهرها عند مسكويه[١]

ويتناول " مسكويه " وجهات نظر الآخرين فى طبيعة الإنسان ، فيذكر أن هناك بعض الآراء التى تشير إلى أن الناس خلقوا أشرارا بالطبع ، وأنهم يصيرون أخياراً بالتأديب والتعلم ، وأن من البشر من هم فى غاية الشر لا يؤثر فيهم التأديب ، وأن منهم بين هذا وذاك ، وأنه يمكن لمثل هؤلاء أن ينتقلوا من الشر إلى الخير بالتأديب فى مرحلة الصبا ، وأن تهيأ لهم الفرصة لمخالطة الأخيار .

---

[١] مسكوية ص (٤٢ : ٤٥)

كما يعرض لوجهة نظر " الرواقيين " والتـــى لا تتفـق مـع الـرأى السابق. حيث يرون أن الناس قد خلقوا أخياراً بالطبع ، ثم يصـيرون بعـد ذلك أشرارا ، وذلك عن طريق مجالسة الأشرار ، والإمعـان فـى إشـباع الشهوات السيئة أو الرديئة التى لا تقمع بالتأديب .

ويذكر لنا رأى " جالينوس " فى طبيعة الإنسان الذى يرى أن النـاس فيهم من هم خيرون بطبعهم ، ومنهم من هم أشرارا بالطبع ، وبقية النـاس يتوسطون بين الخير والشر .

هذا ؛ وقد علق على هذه الآراء بانها غير صحيحة ، وبين سبب ذلـك بالمناقشة والتحليل . ثم يعرض لوجهة نظره فى طبيعة الإنسـان ، حيـث يرى أن الإنسان فى جوهره الخاص الذى يتميز به عن غيره من الكائنلت ، والذى لا يشاركه فيه مخلوق آخر يعتبر أشرف المخلوقات فى هذا العـالم ، إلا أن الأفعال التى تصدر عنه لا تتفق وهذا الجوهـر الشـريف ، وحقيقـة طبعه المحب الأنس الرافض للوحدة واعتزال الناس .

وبناءً على هذا الرأى فإنه يؤكد على ضـرورة الاهتمـام برعايـة الإنسان حتى يمكن أن تكون أفعاله ، وما يصدر عنه مـن مختلـف أنـواع التصرفات والسلوك متفقة وجوهره الشريف الذى يفترضـه فـى طبيعـة الإنسان.

كما يتحدث " مسكويه "[١] عن جوهر الإنسان ، وفـى مقدمـة مـا

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (١٨ : ٢٠)

يتحدث عنه ؛ ملكاته ، وأفعاله ، وقواه التى يتميز بها كإنسان ، والتى تتم بها إنسانيته ؛ وهو يركز على الجانب الإرادى ، وخاصة ما يتعلق بقوة الفكر ، والقدرة على التمييز . ويرى أنه يمكن الحكم على الإنسان عن طريق مايصدر عنه من أفعال الخير وأفعال الشر، ويؤكد على أن الإنسان قد خلق لفعل الخير وأن توجهاته كلها للحصول على الخير وتحقيق السعادة ، وأن حدوث الشر يتوقف على العوائق التى تعوق فعل الخير ، وأن الشرور هى التى تحول بين الإنسان وبين الخيرات .

هذا ؛ وهو يؤكد دائماً على امتلاك الإنسان لحرية إرادته التى تمكنه من فعل الخير . ولهذا فهو يعتقد أنه إذا تمسك الإنسان وحافظ على حقيقة جوهره الذى تميزه عن غيره من المخلوقات ، فإنه سيأتى بكل الخير الذى من شأنه أن يحقق الهدف الأساسى الذى من أجله خلق ... ولذلك لابد من أن يكون على وعى شديد حتى يتجنب كل ما له صلة بالأفعال الشريرة ، والتى تكون سببًا أساسيًا لإعاقته عن فعل الخير الذى هو مفطور عليه . وهو إذا لم يحافظ على حقيقة جوهره هذه ، انحط قدره . بمعنى أنه نزل من مرتبة الإنسانية إلى مرتبة البهيمية الحيوانية . والأمر يكون على خلاف هذا إذا كان واعياً بكل ما يصدر عنه من أعمال وأفعال ، فيكون قد زكى نفسه وأوصلها إلى الدرجة التى أرادها له الله سبحانه وتعالى ، وبذلك تقر عينه ، ويشعر بالسعادة .

كما يشير إلى أن الإنسان كغيره من مخلوقات الله له مايميزه بفعله الخاص الذى لا يشاركه فيه أحد ، وذلك لأنه يتميز بقوة لا يملكها غيره من

المخلوقات ، ويرى أنه كلما كانت قوته المميزة عالية كان على درجة أفضل وأصح وأكمل فى الجانب الإنسانى .

طبيعة النفس :

يتناول " مسكويه "[١] النفس ؛ وهى مجال أساسى من المجالات التى يهتم بها علم النفس . بل يعتنى بدراستها لأنها جوهر الإنسان وحقيقته ، ووسيلته لتحديد نمط شخصيته ، حيث إنه عن طريق التعمق فى دراستها يستطيع الباحث أن يضع تصنيفاً لها ، بعد تحديد سماتها ، وأبعادها التى تميزها عن غيرها من النفوس ولهذا فإننا نجد أن " مسكويه" قد جد فى البحث عنها لمعرفة كنهها وحقيقتها . فنراه يسعى لتحديد خواصها فيقول " إنها ليست بجسم ولا أجزاء من جسم ، ولا عرضاً ذلك أنه لا يستحيل ولا يتغير ، وأنه يدرك جميع الأشياء بالسوية ، ولا يلحقه فتور ولا كلال ، ولا نقص ، وهى تقبل صور الأشياء كلها على اختلافها ، من المحسوسات والمعقولات على التمام والكمال من غير مرافقة للأولى ، ولا معاقبة ، ولا زوال رسم . بل يبقى الرسم الأول تامًا كاملاً ، وتقبل الرسم الثانى تاماً كاملاً ...وهكذا.

هذا ؛ ويؤكد على أن النفس البشرية لديها " قدرة مضادة لخواص الأجسام " ومن أجل هذا كان تحديده للنفس بأنها ليست جسماً ، كما أنها ليست عرضاً . حيث إن العرض لا يحمل عرضاً ، لأن العرض فى نفسه محمول أبداً ، موجود فى غيره لا قوام له فى ذاته . ولكن هذا الجوهر -

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (١٣ : ١٤)

النفس - الذى حدد خصائصه " مسكويه " قابل دائماً ، حامل أتم ، وأكمل من حمل الأجسام للأعراض . وهو فى بيانه لخواص النفس وتوضيحها عن طريق الإشارة إلى بيان خواص جسم الإنسان . حيث يرى أن الطول والعرض والعمق الذى صار به الجسم جسماً . يحدث للنفس فى قوتها الوهمية - التصورية - من أن تصير بها أطول , ولا أعرض . ولا أعمق . بل لا تصير جسماً أبداً . مبيناً أن النفس لديها خواص أخرى فيها القدرة على معرفة الألوان ، والطعوم ، والروائح ، ولا يمنع بعضها بعضاً كما هى الحال بالنسبة للجسم ، فمن خصائصها قدرتها على قبول الأضداد ، وبدرجة من السواء ، وكذلك الأمر بالنسبة للمعقولات . حيث تزاد بكثير من المعقولات التى تحصلها ، وهى بذلك تزداد قوة على قوتها ، وهى خاصية تتميز بها عن الجسم .

كما نجد أن " مسكويه " يسعى لمحاولة بيان حقيقة النفس وكنهها ، وذلك عن طريق دراسة الفروق بين الجسم والنفس . حيث يرى أن الجسم يقوى بمعرفة المعلومات الحسية ، لأنه يميل بحكم تكوينه الطبيعى إليها ، كالشهوات البدنية ، ومحبة الانتقام والغلبة ، ولكن النفس على خلاف الجسم ، حيث إنها كلما تباعدت - النفس - عن الأمور البدنية الحسية ازدادت قوة ، وتماماً ، وكمالاً ، واستطاعت أن تحصل على الآراء الصحيحة والسليمة ، والمعقولة .

ومن هذا يبدو واضحاً مدى الاختلاف بين طبيعة الجسم وطبيعة النفس وجوهرها ، حيث إنها تتطلع إلى معرفة حقائق الأمور المعنوية ،

وخاصة ما له علاقة بالإلهية ، ومن أجل هذا فـــهى أكــثر ميـــلاً - بحكـم طبيعتها - كل ما هو فاضل وشريف . بل وأنـــــها تنصـــرف عـــن اللـــذات الجسمانية . وكل ذلك يؤكد لنا أن جوهر النفس أكرم وأعلى مـــــن جوهـــر الجسم ، ومن هنا بدت قدرتها على معرفة أسباب الاتفاقات والاختلافات بين المحسوسات .

الحاجات الأساسية للنمو الإنسانى والشخصية السوية

عندما تناول " مسكويه "[1] الشخصية الإنسانية ، وبين لنا طبيعـــــة الجسد ، ذكر ميله إلى إشباع الحاجات ، وتلبية رغباته وشهواته ، ســـــواء كانت هذه الحاجات مرتبطة بالطعام أو الشراب ، أو الجنس - وهى الحاجات البيولوجية أو الأولية التى يتحدث عنها علماء النفس فى العصر الحديـــث - ويشير إلى أن مثل هذه الحاجات ترتبط بالنفس الشهوانية . ويذكر لنـــــا أن النفس العاقلة أو الناطقة تقوم بتنظيم إشباع هذه الحاجات الجسدية وذلـــــك عن طريق الروية فى عملية الإشباع .

ويذكر " مسكويه " وجهات نظر من ســـــبقوه فـــى أهميـــة إشـــباع الحاجات الإنسانية وأن عدم إشباع هذه الحاجات يشعر الإنســـــان بـــالألم ، والعكس على خلاف هذا ، عندما تشبع يتحقق للإنسان الشعور باللذة ، وأن هذا الشعور الأخير يتم بعد الألم ، على أساس أن كل لذة حسية هى خـــلاص من ألم أو أذى ، أو إنها - اللذة - عبارة عن راحة من ألم .

---

(١) تهذيب الاخلاق ص (٥٢ : ٥٦ ، ٥٩ : ٦١ ، ٦٨ : ٦٩)

ويعلق " مسكويه " على هذا الرأى السابق ، بأنــــه مــن يــرى أن إشباع الحاجات الأساسية الخاصة بالجسد هدف فى حد ذاته لتحقيق اللــذة ، وجعلها غاية أساسية فى حياته ، يمكن عن طريقها تحقيق السعادة ، فـــإن مثل هذا الإنسان يصبح عبداً لهذه اللذات ، والتى يرى أنها لا تميز الإنســان عن غيره من الكائنات الحية الدنيا كالحشرات والحيوانـــات . لذلــك فإنــه عندما يتعرض للحديث عن الحاجات الأساسية للنمو ، فإنه يــرى أن عــدم الاهتمام بإشباعها يسبب نوعاً من أنواع القصور أو النقــائص الجســمية ، وفى مقدمة هذه الحاجات ، الحاجة للغذاء ، والذى به يتم قــوام الحيــاة ، ويعتدل مزاج الإنسان إذا ما أشبع بالقدر الضرورى الذى يتم به الكمـــال ، ويؤكد على أن طلب الغذاء يجب أن يكون للنمو واستمرارية الحياة ، وليس طلباً للذة، وهذا يعنى عدم تجاوز قدر حاجة الإنسان حفاظاً لذاته .

ويضيف إلى هذه الحاجة ، الحاجة إلى الملبس ، والذى بــه يحفــظ الإنسان جسمه من أذى الحر والبرد . فضلاً عن ستر عورته ، بشرط عــدم المبالغة فى نوعية هذا الملبس ، وفى الوقت نفسه لا يقتر أو يبخــل علــى نفسه. بما يجعله يسقط بين أقرانه وأهله .

ونلاحظ من عرض وجهة نظر " مسكويه " فى هذه الحاجة أنـــها لا تقتصر على أهميتها بالنسبة للجانب الجسمى ، إنما يشير إلـــى أهميتــها بالنسبة للجانب النفسى ، وكذلك مدى تكامل شخصيته وإحساســه بالرضــا عن ذاته .

ثم يؤكد على أهمية الحاجة إلى الجنس ، ويرى أنها ضرورية لحفظ

النوع حيث بها تبقى صورته ، ويضع شروطاً لصحة إشباع هذه الحاجـــة ، والوصول عن طريقها إلى المراد منها ، ومن بين هذه الشـــروط أن يكـــون طلبها أولاً وقبل أى هدف آخر النسل ، وألا يتجاوز فى إشباعها ، وأن يتبـع فى ممارســتها السـنة الشـريفة ، وألا يتعـدى - لممارسـتها - علـــى غير ما يملكه.

ويفهم من أهمية إشباع هذه الحاجة بتلك الأسس والمبادئ الارتقـاء باستخدام الجنس فى حياة الإنسان ، وأن اللذة المترتبـــة علـــى ممارسـته ليست هدفاً فى حد ذاتها، إنما تحقيقها يشكل دافعاً قويـــاً للإشـــباع ابتغـــاء مرضاة الله والحصول على نتائج الشريعة .

وينتقل بعـــد ذلـــك إلـــى الحديـــث عـــن الحاجـات ذات الارتبــاط بالجـــانب النفســـى والتـــى يطلـــق عليـــها - الفضــائل - ويـــرى أنـــــها ضرورية للإنسان -. حيـــث يعتبرهـــا غـــذاء النفـــس العاقلـــة الموافـــق لطبيعتها . ويرى إذا لم يحقق إشباعاً مـــن هـــذه الفضـــائل فـــى مراحـــل عمره الأولى ، وتعداها إلى غيرها من أنـــواع المعـــارف المكتســـبة التـــى تدفع الفرد إلى اللذات الجسمانية كالشـــعر الفـــاحش ، وقبـــول أكاذيبــه ، واستحسان ما يوجد فيه مـــن قبـــائح بـــهدف تحقيـــق لـــذات فـــى هـــذا المجال ، أو عن طريـــق الاختـــلاط بـــأقران يســـاعدونه علـــى حصولـــه علـــى اللـــذات الجســـمانية ، واســـتكثاره منـــها ، والانـــهماك فـــــى الإشباع منـــها أدى ذلـــك إلـــى ابتعـــاد الإنســـان عـــن تحقيـــق الســـعادة الحقيقيـــة .

الشخصية الإنسانية ومكوناتها

يشير " مسكويه " فى كتابه " تهذيب الأخلاق " إلى مكونات الشخصية الإنسانية وذلك تحت عنوان " قوى النفس[١] " حيث يرى أنها تنقسم إلى ثلاثة جوانب: أولهما : الجانب العقلى والذى به يكون الفكر والتمييز ، والنظر فى حقائق الأمور . وثانيهما : الجانب الوجدانى الانفعالى والذى به يكون الغضب والنجدة ، والإقدام على الأهوال ، والشوق إلى التسلط والترفع وضروب الكرامات . وثالثهما: الجانب البيولوجى والذى يتمثل فى الغرائز والتى بها تكون الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الملذات فى المأكل والمشرب والجنس وغيرها من ضروب اللذات الحسية .

ويرى " مسكويه " أن هذه الجوانب - القوى الثلاث - متباينة ، ويريد بذلك أن يوضح أنه إذا قوى مكون منها أضر بالآخرين ، وقد يصل الأمر إلى ضعف فعل أحدهما أو إبطاله وقد تتكامل لتصبح قوة واحدة " قوى لنفس واحدة " .

ويستطرد فى الحديث عن هذه القوى فيسمى القوة الأولى - المكون الأول[٢]- القوة الناطقة وتسمى الملكية وآلتها من البدن " الدماغ " . والقوة الثانية : وهى القوة الشهوية وتسمى البهيمية وآلتها التى تستخدمها من البدن " الكبد " . والقوة الثالثة : -المكون الثالث - القوة الغضبية . وتسمى السبعية ، وآلتها من البدن " القلب " .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٣ : ٣٨)

(٢) أطلقت عليها مكونات الشخصية (ثلاث مكونات)

هذا ؛ ويعرض " مسكويه " لبيان أعمال هذه القوى الثلاث - المكونات الثلاثة للشخصية - ويرى أن أعمالها تتوقف على تكوين وإعداد هذه القوة ، فإن كانت الأعمال التى تصدر عن النفس فاضلة كان ذلك نتيجة لغلبة حركة قوة النفس الناطقة[١] فى حالة اعتدالها ، وأن تكون غير خارجة على ذاتها ، حيث إن الإنسان يصل عن طريقها إلى العلم والحكمة .

وإذا كانت حركة قوى النفس " البهيمية " معتدلة فإن اعتدالها يكون بانقيادها لقوى النفس العاقلة وغير متباينة عليها فيما تقسطه لها ، وليست منهمكة باتباع هواها كانت أعمالها من الأعمال الفاضلة ، حيث تكون على درجة عالية من الفقر والسخاء .

وإذا كانت حركة قوى النفس " الغضبية " معتدلة بطاعتها لقوى النفس العاقلة فيما تقسط لها كانت أعمالها من الأعمال الفاضلة ، بعيدة عن التهيج ، أو أن تشتد أكثر مما ينبغى ، وبذلك تكون على درجة من الحلم والشجاعة .

وينتج عن حالة توافق القوى النفسية الثلاث - بشرط انقياد القوى النفسية البهيمية ، وإطاعة القوى النفسية الغضبية للقوى النفسية العاقلة - مجموعة من الفضائل التالية : العفة والسخاء والحلم والشجاعة التى من شأنها أن تجعل الإنسانية تتسم بشكل عام بفضيلة العدل .

---

(١) قوى النفس العاقلة

ويرى " مسكويه " أن من يتسم بعكس ما تقدم من فضائل يكون نتيجة لعدم تكاملها مع بعضها بعضاً ، وعدم توافق القوى النفسية الثلاث ، فإنه يعد إنساناً غير طبيعي . حيث تغلب عليه سمات الجهلاء والأشرار والجبناء والظالمين ...ويمكن أن يصل الإنسان الفرد بهذه السمات إلى حالة المرض النفسى ، ويترتب عليه تواجد أمراض أخرى كالخوف والحزن والغضب والإمعان فى الشهوانية وغيرها من ضروب السمات التى تشير إلى سوء خلق الشخصية الإنسانية .

هذا ؛ ويذكر فى نهاية حديثه عن الفضائل السمات التى تسمو بها كل نفس من الأنفس الثلاث حيث يعتبر أن الحكمة فضيلة قوى النفس العاقلة المميزة التى تستطيع أن تدرك وتتعلم أمور الإلهية والإنسانية والتى ينتج عنها معرفة كثير من المعقولات التى يتم عن طريقها معرفة الإنسان ما يحب أن يفعل ، وأيها يحب أن يغفل وأن العفة فضيلة القوى النفسية البهيمية أو الشهوانية ، وهى تظهر إذا ما انقادت إلى قوى النفس الناطقة المميزة ، والتى ينتج عنها قدرة للإنسان يتمكن بها من صرف شهواته بناء على إطاعته للقوى العاقلة ، فيصبح قادراً على التمييز ، فلا ينقاد لأى نوع من أنواع الشهوات .

كما يرى أن الشجاعة فضيلة القوة النفسية الغضبية ، وهى تظهر حال انقياد هذه القوة للقوة النفسية العاقلة المميزة ، فيصبح الإنسان قادراً على حسن استعمال الرأى وتوجيه سلوكه فى الأمور والمواقف الصعبة والشديدة ، وعندئذ لا تصاب الشخصية الإنسانية بالخوف أو الفزع حيال

مواقف الحياة المختلفة .

ويتناول " مسكويه " فضيلة العدل التى يعتبرها محصلة الفضائل الثلاث السابقة والتى تكون نتائج التوافق بين قوى النفس المختلفة ، بناء على استسلام القوة النفسية البهيمية ، والغضبية لقوى النفس العاقلة المميزة ، وعندئذ لا يترك الإنسان فى حركته فى الحياة وفق طبائع هاتين القوتين ومتطلباتهما إنما وفق النفس العاقلة المميزة التى تجعل الإنسان قادراً على إنصاف نفسه والانتصاف لغيره .

ويؤكد " مسكويه " على أن الشخصية الإنسانية لا تقوم بنفسها فحسب، أو ذاتها فقط . أى أنها لا تكتفى بذاتها عن غيرها من ذوات الآخرين ، ذلك لأنها فى حاجة إلى غيرها لتكمل ذاتها ، ولتكتشفها ومن أجل هذا لابد من أن يحيا ويعيش الإنسان وسط مجموعة معينة من الناس تعينه وتتعاون معه ، حتى يمكن أن يدرك ذاتها إدراكا حقيقياً . فضلاً عن إسهام كل من الفرد وغيره من الناس فى تحقيق الذات ، وبذلك يتحقق قدر كبير من الحياة الطبيعية للإنسان . ولهذا أكد العلماء على أن الإنسان مدنى بطبعه . أى أنه محتاج للعيش فى المدينة - التى يتجمع فيها كثير من البشر كل منهم له خلقه - حتى يتحقق له الإحساس بالسعادة الإنسانية . حيث إنه من الطبيعى أن يسعى الإنسان إلى معرفة غيره ومصادقتهم ، ومعاشرتهم العشرة الجميلة، ومحبتهم المحبة الصادقة التى تؤكد حاجة الإنسان إلى أخيه الإنسان.

كما يضيف " مسكويه[١] " معلومة أساسية وهامة يؤكد عليها علماء النفس فى دراساتهم وبحوثهم ، وهى أن الفضائل - (السمات) - ليست مجرد كلمات مجردة أو مفاهيم جوفاء ، أو أسماء لمعانى لا واقع لها . بل هى أفعال وأعمال وسلوك يظهر عند مشاركة الإنسان لغيره ومساكنتهم ، ومعاملتهم ، ومختلف ضروب العلاقات الاجتماعية .

ويبين " مسكويه[٢] " أن النفس واحدة ، ولها قوى ثلاث تتصل ببعضها لتصبح نفساً واحدة وأنها[٣] واحدة بالذات ، وكثيرة بالعرض والموضوع ، وأن الشخصية الإنسانية هى مكون القوة النفسية الثلاث . حيث تتكامل هذه القوى ، فتصبح على درجة من كمال الذات بإتمام ما نقص فيها عن طريق العمل على علوها ، وتطورها ، والذى ينتج عنه إحساس الفرد بالراحة والسعادة النفسية . وفيما يلى بيان لهذه القوى النفسية الثلاث :

أولاً : النفس العاقلة أو الناطقة[٤]

وتعتبر هذه النفس فى المرتبة الأولى ، وهى أفضل النفوس ، وبها يصبح الإنسان متوافقاً مع جوهره وحقيقة تكوينه ، وبها

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٣٨)

(٢) تهذيب الأخلاق ص (٥٦ : ٥٨ ، ٦٢ : ٦٥)

(٣) وهو يعتمد فى حديثه عن النفس على قراءاته وفهمه لمن سبقوه فى هذا المجال .

(٤) هى القوى التى يكون بها الفكر والتمييز .

وبـها يتفـاضل الإنسـان عـن غـيره مـــن الكائنـــات الأخـــرى ، والموجودات. كما أنها تشكل أهمية بالغـــة فيمـا يكـون عليـه مسـتوى مزاجه وسوائه النفسى ، وبها - أيضـاً - يصبـح الإنسـان قـادراً علـى أن يكون حكيماً و أميناً ، وقد يصل بعض البشـــر إلـى درجـة مـا مـن الشفافية والرقى إذا ما أحســن اسـتخدامها .

هذا ؛ وقد شبهها " مســكويه " بـالذهب فـى المرونـة ، حيـث يستطيع الإنسان عن طريقها أن يدرك ويعى ويفـــهم ثـم يسـلك - وفـق ماتقدم - أفضل أنواع السـلوك وهـى نعمـة مـن الله أنعـم بـها علـى الإنسان ليضبط بها كـل مـن النفـس الغضبيـة أو السـبعية ، والنفـس الشهوية حالة زيادة قوة كـل منـهما لإشـباع رغبتـهما عنـد الغضـب والشـهوة .

ويرى " مســكويه " أن النفـس العاقلـة تعتـبر القـوة المميـزة التى تعين الإنسان وتمكنه من التميـيز بيـن الأفعـال حتـى يصـل إلـى أعلى درجة من الكمال فـى التميـيز ، وعندئـذ يمكـن أن نطلـق علـى الإنسان صفة العقلية ، ووسيلتها إلـى ذلـك اسـتخدام المـخ. وأن هـذه النفس ليست - كما ظن بعض الناس من العامـة والجـهلاء - أنـها فـى خدمة النفس الشهوية أو أنها تستخدم فى الحصـول علـى اللـذات التـى تطلبها مـــن المـأكل والمشـرب ...... وتحقيـق منتـهى غاياتـها مـن الشهوة وهى اللذة ، بل إنها قـوة فاعلـة للذكـر ، والحفـظ, والرويـة، ومن أجل ذلك فهى وسيلة الإنســان للفضيلـة .

ومما تقدم يبدو واضحاً أن النفس العاقلة هى نفس ضابطة لرغبات وحاجات النفس الشهوية ، وذلك عن طريق ترتيب وتنظيم الأمور والظروف التى يتحقق من خلالها إشباع حاجات النفس الشهوية . كما أنها - النفس العاقلة - تسهم بدرجة كبيرة فى مدى تحرر الإنسان من القوانين الشهوية والغضبية . وبذلك تنتظم حياة الإنسان . بما يؤدى إلى تحقيق قدر من السواء النفسى . فضلاً عن أدوارها فى مساعدة الإنسان للوصول إلى الاكتمال المنشود والمتطلع إليه من وظائف القوى العاقلة المميزة للعالم .

كما أن " مسكويه " يرى أن القوة العاقلة هى وسيلة الإنسان للوصول إلى الفعل العلمى الملموس المحسوس على اعتبار أن العلم " مبدأ " وأن العمل " تمام للمبدأ " وأن المبدأ بلا تمام يصبح ضائعاً ، وأن التمام بلا مبدأ يكون مستحيلاً ، وأن بهما معاً يتحقق الغرض واكتمال الذات . حيث إنه يرى " أن كمال الذات والغرض ليس شيئاً واحداً ، إنما يعدان شيئان على أساس أن الكمال - إذا نظر إليه وهو بعد من النفس - ولم يخرج إلى العقل فهو غرض ، فإذا خرج إلى الفعل وتم فهو كمال".

هذا ؛ وتعمل هذه القوى النفسية الثلاث عن طريق اتصالها وتفاعلها ببعضها وإحداث التوافق بينها ، وعندئذ تصير شيئاً واحداً يمكن أن نطلق عليه الشخصية الإنسانية السوية .

ومن هذا يبدو واضحاً أن الإنسان يستطيع عن طريق قواه النفسية الثلاث أن يكون الشخصية السوية التى تكون على درجة كمال الذات، وذلك بإتمام ما نقص فيها ، والعمل على علوها وتطورها .

ويلفت " مسكويه " النظر إلى أن هذه القوى النفسية الثلاث مع كونها شيئا واحداً ، فإنها لديها استعداد للتغاير ، وأن قوة كل منها قابلة للثورة الواحدة بعد الأخرى ، ومن يرى ذلك لا يمكن أن يتصور إمكانية اتصالها وتفاعلها ببعضها . وأنه يمكن أن تضعف إحداها وتبدو كأنها غير ذات قوة . بل وغير موجودة ، وأن هذا يتم حال ارتفاع مستوى قوة إحداها، أو ضعف قوة بعضها .

ثانياً : النفس الغضبية أو السبعية[١]

وتعتبر هذه النفس فى المرتبة الثانية أو الجزء الثانى المشكل للشخصية الإنسانية ، وهى تقع كما أورد " مسكويه " فى المرتبة الوسطى . وهى قوة إذا غلبت على الإنسان ، ولم تخضع لقوى النفس العاقلة المميزة أدت إلى خلل فى قدرة الشخصية الإنسانية ، وجعلته فى مكانة وضيعة نتيجة لعدم استجابتها حال إصدار السلوك للنفس العاقلة المميزة . حيث إنها تدعو الإنسان - بسيطرتها - إلى التفاعل مع رغبات النفس الشهوانية. حيث إن الغضب والتمادى فيه يسهم فى سرعة استجابة الإنسان لرغبات النفس الثالثة.

---

(١) القوى التى يكون بها الغضب والنجدة والإقدام على الصعاب والشوق إلى التسلط والترفع . وأنواع الكرامات.

والعكس على خلاف هذا ، إذا استجابت هذه النفس لقـوى النفـس العاقلة تمكن الإنسان من تقويم وتعديل قوى النفس البهيميـة - الثالثـة - وجعلها تتقبل الأدب ، وحسن الطاعة وبذلك يمكن ضبطها . بل وقمع قـوى النفس البهيمية . وهذا ما جعل " مسكويه " يؤكد على أن النفس الغضبيـة هى القوة الصلبة التى يمكن الاستعانة بها لقهر قـوى النفـس البهيميـة (ويرى أن الآلة التى تستخدمها هذه القوة القلب) وأن هذه النفس إذا كـانت معتدلة فإنها تطيع قوى النفس العاقلة ، فلا تهيج فى غير وقتها الذى يجـب أن تنفعل له . وألا تزيد فى شدة انفعالها لأن مثل هذه الزيادة لاتؤدى إلـى سلوك سوى سليم .

هذا ؛ ويرى " مسكويه " أن تكامل هذه القوى الثلاث بـاعتدال كـل منها فيما يخصه يؤدى إلى تكامل الشخصية والتى يمكـن أن يصـل بـها الإنسان إلى العدل والحكمة والعفة والشجاعة .

ثالثاً: النفس الشهوية أو البهيمية[١]

تقع هذه النفس فى المرتبة الثالثة ؛ وهى المرتبة الأدنـى بالنسـبة لبقية القوى النفسية السابقة . وهى تقود الإنسان - إذا سيطرت عليه - إلى ممارسة وإشباع الشهوات . وتعمل هذه القوة وفق اللذة الفاعلـة ، حيـث إنها تقود الإنسان - إذا سيطرت عليه - إلى اشباع الشهوات ، كالمـأكول ، والملبوس ، والمشروب ، وغيرها من الشهوات .

---

(١) هى القوى التى يكون بها الشهوة ، وطلب الغذاء ، والشوق إلى الملذات من المـأكل والمشارب والجنس ومختلف اللذات الحسية .

ويرى " مسكويه " إنه إذا غلبت هذه القوة النفسية على الإنسان جعلته ممارساً لمختلف الأعمال البهيمية . وإذا استطاع الإنسان أن يوظف قوى النفس العاقلة ، فإنه يمكن أن يستحى من هذه الأفعال الشهوانية البهيمية ، فيستتر حال إتيانها وذلك بالتوارى فى الظلمات أو داخل البيوت، ويدل الاختفاء عن أعين الناس على إدراكه لقبح مايفعل . وإذا استمر فى تلبية رغبات النفس الشهوية قادته إلى أن يكون خسيس الطبع ، سيىء المذهب . الأمر الذى يشعر معه أنه أقل من غيره من نوعيات البشر التى لا تستجيب لمثل هذه القوة أو إذا استجابت لها استخدمت معها القوة العاقلة .

هذا ؛ ويؤكد " مسكويه " أن من أبرز سمات هذه النفس - الشهوانية - أنها عديمة الأدب ، وغير قابلة له ، وأنها إذا غلبت وسيطرت ساء حال القوتين السابقتين - العاقلة والغضبية - وأدت إلى تحويل الإنسان إلى شخصية ضعيفة . ويرى أن الأداة التى تستخدمها هذه القوة الكبد .

وإذا لم يكن للقوة العاقلة سيطرة عليها لضبطها ؛ أدى هذا إلى الإمعان فى مزيد من الشهوات البهيمية . حيث إنها تعتبر ذات أولية فى الظهور عند الإنسان ، بداية بالشهوة للغذاء الذى يعتبر أساساً لاستمرارية الحياة ، ووصولها بالإنسان إلى الإمعان فى إشباع رغباته ؛ ولذاته التى لا تنتهى والتى تتزايد بتزايد نمو الإنسان لأنها تعمل وفق اللذة الانفعالية .

ويرى " مسكويه " أن هذه النفس هى التى تشعر الإنسان بالجوع والعرى ، ومختلف ضروب النقص الذى تستشعره ، والحاجات التى تدفعه لإشباعها حتى لا يلحق بالإنسان الضرر أو الأذى ، وعندئذ يعود الإنسان

إلى حالة السلامة والشعور باللذة التى تتبع الشعور بألم الجوع ومن أجل هذا قال: إن بنى البشر " إن لم يؤلموا لم يلتذوا بالأكل . وهكذا فى مختلف اللذات الأخرى . وأن اللذة راحة من ألم ، وأن كل لذة حسية هى خلاص من ألم أو أذى " .

هذا ؛ ويؤكد على أن جسد الإنسان مطبوع على الحاجة إلى الشهوات، وأن ما يحدث من لذة إشباع هذه الشهوات إنما هى ضرورة للجسد، وذلك لحفظ تركيبه ونوعه .

هذا ؛ ويشير " مسكويه " إلى أن مصدر التوازن فى حياة الإنسان بين الجانب الجسمى والنفسى هو الغذاء الذى يعتبر أساساً لإزالة ما يلحق من نقص فى جانبيه، وذلك عن طريق إشباع حاجاته الأساسية والضرورية. حيث إن الغذاء هو وسيلة الإنسان إلى استمرارية حياته بصورة سليمة صحيحة .بالإضافة إلى اعتدال مزاجه. ويرى أن أى تجاوز فى إشباع هذه الحاجات يؤدى إلى عدم إتزان (السواء النفسى)،وأن الوسطية فى الإشباع هى التى تحقق التوازن سواء الجانب الجسمى أو النفسى ،وتجعل الإنسان على درجة من الفضل التى يصير بها الإنسان إنساناً .

ويؤكد على ضرورة اختيار الغذاء المطلوب للجانب العقلى الذى يتم عن طريقه التكامل ، ويزيل النقصان ، ثم يحدد - بعد هذا - أهم غذاء بالنسبة لهذا الجانب ، وهو العلم الذى يسهم بدرجة كبيرة فى النمو العقلى، والذى به يدرك الإنسان الحق والصدق فى أى مكان وأى زمان ، وكذلك

الأمر بالنسبة لإدراك الباطل والكذب ، ويضيف إلى ما تقدم من أهمية العلم كغذاء للنمو العقلى ، الإلتزام بالخلق القويم . بالإضافة إلى الاهتمام بتعليم الحساب والهندسة لما لهما من أهمية فى التحقق من صحة البرهان . وإذا استطاع الإنسان أن يحقق هذا الغذاء اللازم للنمو الإنسانى فإنه يستطيع أن يحقق أفضل مستوى من السعادة والسواء النفسى .

صفات الشخصية الإنسانية

ويستمر " مسكويه " فى وصف وتحديد الشخصية الإنسانية ؛ فيتناول عدداً من الصفات الإنسانية التى يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات الأخرى بالبيان والتوضيح . ويعرض لهذه السمات تحت مسمى " الفضائل "، ويسعى لتحديد المقصود بكل منها تحديداً يفرق به بين صفة وأخرى .

ويعرض فى مقدمة صفات الشخصية صفة الحكمة[١] ويرى أنه يندرج تحتها مجموعة من الصفات تعطى فى محصلتها حكمة الإنسان . وفى مقدمة هذه الصفات؛ الذكاء : الذى يعرفه بأنه سرعة إنقداح النتائج ، وسهولتها على الفهم النفسى . والذكر : الذى يعنى ثبات صورة ما يخلصه العقل من الأمور ، والتعقل : الذى يعنى موافقة بحث النفس عن الأشياء الموضوعية بقدر ما هى عليه . وآخرون صفاء الذهن: الذى يعنى استعداد النفس لاستخراج المطلوب . وسهولة التعلم .. الذى يعنى القدرة على الفهم وإدراك الأمور النظرية .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٧ : ٢٨)

ويتناول بعد ذلك صفة العفة[١] : وفى مقدمتها الحياء التى يعرفها بانها " انحصار النفس خوف إتيان القبائح ، والحذر من الذم ، والسب الصادق . " ثم يبين عدداً من الصفات التى ترتبط بهذه الصفة ، وهى الدعة: والتى تعنى سكون النفس عند حركة الشهوات . والصبر : ويقصد بها مقاومة النفس للانقياد لقبائح اللذات . والسخاء : الذى يعنى التوسط فى العطاء ، وإنفاق الأموال فيما ينبغى على مقدار ما ينبغى ، وعلى ماينبغى . والحرية : التى تمكن الإنسان من اكتساب المال من وجهة ويعطى فى وجهة، وتمنع من اكتسابه من غير وجهة ، والقناعة : التى تعنى التساهل فى المآكل والمشارب والزينة. والدماثة : التى تعنى حسن انقياد النفس لما يجمل، وتسرعها إلى الجميل. و الانتظام : والتى تعنى حسن تقدير الأمور وترتيبها كما ينبغى . وحسن الهدى التى يقصد بها محبة تكميل النفس بالزينة ، أى الأخلاق الطيبة المرضية ، والمسالمة : التى تعنى موادعة النفس حتى لاتضر بالآخرين ، أما سمة الوقار : التى يقصد بها سكون النفس وثباتها عند الحركات التى تكون فى المطالب . و الورع : وتعنى الالتزام بالأعمال الجميلة التى بها كمال النفس .

ثم يذكر صفة الشجاعة[٢] : والتى يندرج تحتها عدداً من الصفات ذات الإرتباط بها وفى مقدمة هذه الصفات ، صفة كبر النفس: التى تعنى الاستهانة باليسير والاقتدار على تحمل المسئوليات ، والتصدى للأمور

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٨ : ٢٩)

(٢) تهذيب الأخلاق ص (٣٠)

العظام لاستخفافه بها . والنجدة : والتى يقصد بها ثقة النفس عند المخاوف فلا يداخلها جزع . وعظم الهمة : والتى يتحقق بها سعادة الجد وضدها حتى الشدائد التى تكون عند الموت . وصفة الثبات : التى تعنى احتمال الآلام ومقاومتها حالة حدوث الأهوال والمصائب . و الحلم : التى بها تكتسب النفس الطمأنينة فلا تكون شغبه ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة وصفة السكون : التى تعنى عدم الطيش الذى يبدو عند مواجهة الخصومات، أو الحروب أو الدفاع عن الحريم أو الشريعة . وهى قوى تمكن النفس من قسر حركتها فى هذه الأحوال . و الشهامة : التى تعنى الحرص على الأعمال العظام ، وتوقعاً للذكر الطيب والحديث الجميل . وينهى "مسكويه " كلامه عن الصفات المرتبطة بالشجاعة أو التى تندرج تحتها صفة الكد التى تشكل قوة للنفس تمكن الإنسان من استعمال آلات البدن بالأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة .

ويشير بعد ذلك إلى صفات أخرى وهى صفة السخاء : التى تعنى إنفاق المال بسهولة من النفس فى الأمور الجليلة القدر ، الكثير النفع كما ينبغي ، ويتصل بهذه الصفة عدد آخر من الصفات منها ؛ الإيثار : وهى سمة يكف بها الإنسان عن بعض حاجاته التى تخصه حتى يبذله لمن يستحق. والنبل : التى تعنى سرور النفس بالأفعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة. والمواساة : التى تعنى معاونة الأصدقاء والمستحقين ومشاركتهم بالأموال والأقوات . أما السماحة : فهى تعنى بذل الإنسان بعض ما لا يحب والمسامحة : التى تعنى ترك بعض ما يحب .

وينهى حديثه بصفة العدالة : فيذكر فى مقدمتها الصداقة : التى تعنى محبة صادقة ، يهتم معها بجميع أحوال الصديق ، و إيثار فعل الخيرات التى يمكن أن يفعلها له . والألفة : التى يقصد بها اتفاق الآراء والاعتقادات وتحدث بالتواصل وصلة الرحم : والتى تعنى مشاركة ذوى القربى فى الخيرات التى فى الدنيا . والمكافأة : ويقصد بها مقابلة الإحسان بمثله ، وبزيادة عليه . وحسن الشراكة : وتتمثل فى عمليات ذو الأخذ والعطاء فى المعاملات على الاعتدال الموافق للجميع . وحسن القضاء : ويقصد به المجازاة بعدل بغير ندم ، ولا منّ . والتودد : الذى يقصد به طلب مودة الأكفاء ، وأهل الفضل بحسن اللقاء ، وبالأعمال التى تستدعى المحبة منهم، ثم العبادة : والتى تعنى تعظيم الله تعالى ، وتمجيده وطاعته، وإكرام[١] أوليائه من الملائكة والأنبياء والأئمة والعمل بتوجيه الشريعة ، وتقوى الله .

ومما تقدم من عرض وبيان لأهم صفات الشخصية الإنسانية كما يراها " مسكويه " والتى يرى أنها فضائل يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات . يبدو واضحاً فهمه الجيد لمفهوم الشخصية كما يراها من يعملون فى مجال علم النفس فى العصر الحديث ، وإدراكه الصحيح للصفات التى يجب أن يتميز بها الإنسان عن غيره من الكائنات ، ويحصل على أفضل مستوى من الراحة والهدوء النفسى . فضلاً عن توافق وجهة نظره فيما تكون عليه الشخصية الإنسانية من هذه

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٤١ : ٤٥)

الصفات ، ووجهـــة نظره فى الطبيعة الإنسانية ، والتى يراها أنها خيرة فى حقيقتها .

كما يتضح - أيضاً - أن " مسكويه " يـــرى أن هـــذه الصفـــات[١] يكتسبها من خلال عملية التعليم والتربية ، وهو ما يطلـــق عليـــه التـــأديب والتهذيب للنفس . وأن هذه الصفات تحافظ على نقاء وخير الإنســـان مـــن الانحراف نتيجة معايشته لغيره من الناس الذين طغت إحدى قـــوى النفـــس البهيمية أو الغضبية ، ولم تستجيب للمكون الثالث للشخصية الإنسانية وهى القوى العاقلة أو الناطقة .

مسكويه والجانب الانفعالى لدى الإنسان :

يتناول " مسكويه " موضـــوع الجـــانب الانفعـــالى عنـــد الإنســـان تحت مسمى (الخلق) . حيـــث يـــرى أن أخـــلاق الإنســـان تبـــدو فيمـــا يصدر عن نفسه من أفعال من غـــير فكـــر ولا رويـــة . ويذكـــر أن هـــذه الحال تنقسم إلى قسمين : أولهما : يكون طبيعيـــاً مـــن أصـــل المـــزاج ، ويضرب لنا مثلاً يوضح ذلـــك ؛ كالإنســـان الـــذى يحركـــه أدنـــى شـــىء نحو الغضب ، ويهيج من أقل الأســـباب ، أو كـــالذى يخـــاف مـــن أيســـر شىء ، أو يفزع من أدنى صوت يطـــرق ســـمعه ، أو يرتـــاع " يرتعـــب " أو يضطرب من خبر يســـمعه ، أو كـــالذى يضحـــك ضحكـــاً مفرطـــاً مـــن أدنى أو أبسط شىء يعجبه ، أو كالذى يغتـــم ويحـــزن مـــن أيســـر شـــئ يناله .

---

(١) والتى يسميها بالفضائل .

وهو يعرض لنا هذا الجانب فى الإنسان ويتعرض لآراء العلماء فى مصدر الخلق الذى يشكل الأساس فى إصدار الانفعالات لدى الإنسان هل يصدر عن النفس العاقلة أو الناطقة ، ويشير إلى أن بعض العلماء يذكر أنه من اختصاص النفس الناطقة . واختلفت آراء بعضهم حول أنه طبيعياً أم لا. إلا أن " مسكويه " يميل إلى اعتباره طبيعياً فى الإنسان ، على أساس أننا مطبوعين على قبول الخلق لأنه إذا رد إلى أى قوة من قوى النفس البشرية، فإنه يعطلها عن دورها فى التمييز .

ويوضح " مسكويه " المقصود بأنه طبيعى أو بأن الإنسان مطبوع على قبول الخلق . بمعنى أن الإنسان لا ينبغى أن يترك وشأنه لتكوين أو نمو الجانب المزاجى الذى يمكنه من إدراكه والتعرف عليه عن طريق مدى تأثر الفرد بالمثيرات المحيطة به ، ومدى انفعاله بها . بل لابد من التأديب والتهذيب والتعليم حتى يستطيع أن يستقبل المثيرات استقبالاً يتناسب وحجم وقدرة المثير. وإلا إذا ترك الإنسان وشأنه فى هذا الأمر بلا مواقف اجتماعية أو خبرات حياتية أو بغير سياسة أو بدون تعليم فإنه يصبح على غير ما هو عليه بعد التأديب . كما يوضح لنا - أيضاً - دلالة كلمة أنه مطبوع على الخلق ؛ بأنه لديه القابلية للاكتساب والتعلم الذى من شأنه أن يسهم بدرجة كبيرة فى تكوين خلقه أى تكوينه ونموه فى الجانب الانفعالى لديه .

الصحة النفسية

ويتناول " مسكويه " مجـالناشر : مكتبة الأنجلو المصرية الصحـة النفسية تحت عنوان " السعادة "[١] ويرى أنها أهم مطلب فى حياة الإنسـان لأنها تحقق ما يمكن أن نطلق عليه وفق مصطلحات العصر " جودة الحيـاة للإنسان " وهى تتحقق على مستويين؛ الأول : الإنفعالى ، والثانى : الفعلـى ، وهو المستوى الذى يستطيع الإنسان أن يحقق السـعادة عـن طريقـه ، بمعنى أن الإنسان عندما يحقق لذة ذات صفة انفعالية، فهو لا يحقق الراحـة و الاستقرار النفسى ، لأن مثل هذه اللذة عرضية، وهى كـل لـذة تقـترن بالشهوات الحسية التى سرعان ماتزول . بل قد تنقلب هذه اللذة فى نهايـة الأمر إلى الإحساس بالألم .

بينما يحقق المستوى الثانى : " الفعلى" - اللذة الذاتية - والتى بـها يحقق الإنسان الراحة والاستقرار النفسى ذلك لأن لـذة هـذا المسـتوى لا تصير فى وقت آخر غير لذة، ولا تنفصل عن حالتهما ، بل هى ثابتة أبـداً ، وعندئذ يتمتع الإنسان باللذة الذاتية لا العرضيـة ، والعقليـة لا الحسـية ، والفعلية لا الانفعالية ، وتلك التى يتحقق من ورائـها السـواء النفسـى . ويعتمد فى بيان أسس تحقيق السواء النفسى - السعادة - علـى وجـهات نظر الحكماء الذين يرون أن اللذة الصحيحة هى التى تحول الإنسـان مـن شعور الحاجة والنقص إلى الشعور بالإشباع والتمام ، ومن المرض إلـى الصحة ، وتحول النفس من الجهل إلى العلم ، ومن الرذيلة إلى الفضيلـة ،

---

(١) تهذيب الاخلاق ص (١٠٤ - ١٠٧)

وبناء على هذا يستطيع الإنسان أن يستقر ويهنأ ويهذأ بالراحة والطمأنينة، حيث يتم التوافق للغنسان مع الحالة الثانية التى ينقلها إليها .

ويؤكد " مسكويه " أن تحقيق الصحة النفسية – السعادة – يحتاج ضمن ما يحتاج إلى قوى النفس العاقلة ، ذلك لأن قوى النفس الشهوانية تسعى إلى تحقيق اللذة الحسية ، وأنه إذا استجاب الإنسان لتلبية رغبات هذه النفس وأفرط فى إشباعها أدى ذلك إلى استحسان كل قبيح ، ويصبح بعد ذلك غير قادر على إدراك الخطأ والقبيح حتى تدركه الحكمة باستخدام قوى النفس العاقلة ، حيث يدرك عن طريقها أنه قد أوقع نفسه فيما لا ينبغى له أن يقع . الأمر الذى يمكنه من عدم الإغراق فى شهوات النفس ، وعندئذ يحقق قدراً من السواء النفسى أو ما يطلق عليه – هو – السعادة.

ولهذا يعود فيؤكد على أن اللذة الفاعلة هى المصدر الحقيقى لتحقيق الصحة النفسية – السعادة – أما من سعى لتحقيقها عن طريق اللذة الانفعالية فإنه لن يحققها بل يعرض نفسه للاستمرار فى الاضطراب والقلق، لأن اللذة الانفعالية لذة ناقصة عرضية والتى بها يحقق الشقاء .

هذا ؛ ويشير إلى أن الإنسان يستطيع بالنفس العاقلة أن يحقق اللذة العقلية والتى يدفع بها قوى النفس الشهوانية ويتمكن من حسن التصرف بالمعرفة والتمييز والصبر .

ويرى أنه يمكن أن يتحقق السواء النفسى للإنسان عن طريق استخدام الوالدين لأساليب التربية والتنشئة الاجتماعية والشريعة

الإلهية والدين القيم منذ بداية إدراكه للحياة أى منذ طفولته ، فيصل عن طريق ذلك كله إلى قدرٍ من الحكمة التى بها يتولى تدبير أمره إلى آخر العمر ، فضلاً عن التزام الإنسان بالأفعال الخيرة والفاضلة ، وأن مثل هذا الإنسان لا يسر نفسه فقط بل يسر غيره بأفعاله معهم ، فيسعى غيره إلى التعامل معه ، ومصادقته ، والأمر يكون على خلاف ذلك بالنسبة للإنسان غير السوى .

هذا ؛ ويؤكد أيضاً على أهمية ارتباط الإنسان بالشريعة الإسلامية ، حيث يرى أنها تمكن الإنسان من ضبط النفس والمحافظة على صحتها ، لأنها الوسيلة الوحيدة الفعالة التى يتم عن طريقها تحقيق السواء النفسى للإنسان دون شك . وهو عندما يتناول موضوع الصحة النفسية للإنسان يركز على أهمية العافية بها لما لها من أثر على صحة البدن . حيث يقول : " إن النفس متى تعطلت عن النظر ، وعدمت التفكير ، والغوص فى المعانى تبلدت ، وانقطعت عنها مادة كل خير . وإذا ألفت الكسل ، وتبرمت بالروية ، واختارت العطلة قرب هلاكها لأن فى عطلتها هذه انسلاخاً من صورتها الخاصة " .

الأمراض النفسية

يتناول " مسكويه " فى مقاله (دواء النفوس) الأمراض النفسية التى تلحق بالنفس ، وأسبابها ، وعلاجها وذلك بعد الوقوف على تشخيصها . وهو يرى أن النفس متعلقة بصاحبها ، وهى متغيرة بتغيره ، ويبدو هذا فيما يظهر منها من أفعال تدل على مرض نفسى . ويذكر لنا من علامات الاضطراب النفسى ومظاهره :الغضب ، والحزن ، والعشق ، وعلامات قوة دفع الشهوات التى تبدو على بدن الإنسان ، فيضطرب ، ويرتعد ، ويحمر ، ويسمن . بالإضافة إلى أنواع التغير المشاهد بالحس .

ويركز " مسكويه " على ضرورة التعرف على أسباب الأمراض إذا بدا على الفرد بعض المظاهر السابقة الذكر ، ويرى أن أسباب المرض قد تكون من نفوسنا ، كالفكر فى الأشياء الرديئة واستمرارية التفكير فيها . وكاستشعار الخوف ، أو الخوف من الأمور العارضة والمرتقبة ، أو قوة دفع الشهوات فوق العادة ، حيث إن معرفة الأسباب تمكننا من علاجها بما يخصها من الدواء . ثم يضرب لنا مثالاً آخر للبحث عن الأسباب التى تؤدى إلى تغير الحالة النفسية من الاستقرار إلى الاضطراب الذى يوصل إلى المرض كالمزاج ، أو حالة الضعف التى تسود النفس بسبب ضعف حرارة القلب ، والكسل والرفاهية وغيرها من الأسباب التى يتم عن طريقها معرفة كيفية العلاج .

ويشير " مسكويه " إلى أهمية إدراك الفرق بين الجانب الوقائى ، والجانب العلاجى عندما رأى أن طب الأبدان ينقسم إلى قسمين : أحدهما

حفظ صحتها إذا كانت حاضرة ، والآخر ردها إليها إن كانت غائبة . وكذلك الأمر بالنسبة لطب النفس " وجب أن يقسم طب النفوس إلى هذه القسمة بعينها ، فنردها إذا كانت غائبة ، ونتقدم فى حفظ صحتها إذا كانت حاضرة".

هذا ، وقد عرض " مسكويه " عددا من الأمراض النفسية التى يصاب بها الإنسان فى حياته . وهو من خلال عرضه يعدد الأسباب النفسية التى تؤدى إلى إصابة الإنسان بالمرض ، ويبين كيفية علاجها ، ثم يذكر لنا أنواعا من الأمراض ومنها :

الجبن:(١)

ويعرف هذا المرض بقوله :" سكون النفس عندما يجب أن يتحرك فيه ، وبطلان شهوة الانتقام ومن هذا يفهم أن الجبن كحالة نفسية مرضية يصاب بها الإنسان فى بعض مواقف الحياة تمنعه من الإتيان بالسلوك الذى يدافع به عن ذاته بل يصل الأمر الى حد فقدان الرغبة فى الانتقام لما أصاب الذات من ألم فى مثل هذا الموقف.

ويرى أنه يترتب على أصابه الإنسان بهذا المرض عدد من النتائج منها، إهانة النفس ، وسوء العيش ، وطمع طبقات الأنذال وغيرهم من الأهل والأولاد والمعاملين ، وقلة الثبات والصبر فى المواطن التى يجب فيها الثبات . فضلا عن الإحساس بالكسل ، والركون إلى الراحة ،

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢١٤)

والمرض بكل رذيلة ، والدخول بالنفس والأهل والمال فى مجـــالات تتسـم بالقبح والفحش ، والشتم ، والقذف ، واحتمال كثـير مــن الظلـم ، وقلــة الإحساس والضيق بكل ما يأنف منه الإنسان العادى الصحيح .

ومن هذا يبدو واضحاً أن هذا المرض -" الجبن "- لا يعنى فقط توقـف الإنسان عن ممارسة حياته بشكل وصورة طبيعية . بل يورثه كثـــيراً مــن الصفات الذميمة السيئة التى تبعـــده عــن دائــرة العلاقــات الاجتماعيــة والإنسانية التى تشكل أساساً وضرورة لإشباع حاجــات الإنســان ونمــوه وتطوره.

ويقترح " مسكويه " لعلاج هذه الحالة النفسية التى قد تصيب الإنسان فى معترك الحياة بأن يأخذ الإنسان بأضداد أسباب حدوثها ، وكذلك بإيقــاظ النفس من حين لآخر حتى لا يقع فريسة لمثل هذا المرض ودعوتـــه إلــى ممارسة الحركة الطبيعية فى الحياة ، وألا يستسلم الإنسان لما قد يصبه فــى الحياة من ضعف أو فتور.

الغضب :

يتناول " مسكويه " (الغضب[١]) كحالة مرضية تنتــاب الإنســان فــى حياته ويبدأ بتحديد المقصود بالغضب، فيرى أنه " حالة انفعاليـــة تدعـــو الفرد للخروج عن حالة الاعتدال " فتدفعه لإصدار أفعال كثيرة غيرة ســوية. وهذه الحالة تؤثر بالدرجة الأولى على نفسه ، ثم على غيره من المحيطيـن

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢١١ : ٢١٣)

به، وممن يتعاملون معه ، ويبدو هذا فى صورة الاعتداء عليهم بلسانه ، وبيده، وقد يصل الأمر بالإنسان الذى أصيب بالغضب الى الإتيان بأنماط سلوكية تخرج عن دائرة الإدراك العقلى ، وتتلف ما حوله من أشياء مادية ومعنوية .

ويرى أن حالة الغضب هذه تصيب النساء أكثر منها فى الرجال، وفى المرضى أقوى منها فى الأصحاء ، وعند الصبيان أسرع منها عند الرجال ، والشيوخ أكثر منها عند الشبان . ويعتبرها - حالة الغضب - ملازمة للشخص بصفة دائمة . وهذه الحالة المرضية - الغضب - تجلب لصاحبها إفساد العلاقة بينه وبين أهله وذويه وأصدقائه وكل من يتعامل معه ، وتؤدى إلى فقدان الثقة فى غيره من الناس ، وبذلك يبتعد عن حالة السرور ودائماً تجد صاحبها فى حالة من الحزن والاكتئاب .

ويعرض لبعض الأسباب التى تؤدى إلى الغضب عند بعض الأنماط من الشخصية الإنسانية ، كالشره الذى يغضب لعدم تلبية ما يشتهى من الطعام والشراب ، والبخيل الذى يغضب من فقدان ما يملك من المال ، والعظيم الذى يبلغه الانتقاص منه والعيب فيه .

ويذكر أن من علامات الغضب ومظاهره : ارتفاع ضغط الدم، والرغبة فى الانتقام ممن أغضبه ، والتربص به لإيقاعه فى الخطأ، والنيل منه ، وإطلاق اللسان بالسب والإهانة ، وامتداد اليد لإيذائه ، وسوء المعاملة، وعدم التهيؤ لمساعدته حالة وقوعه فى مشكلة ما .

ثم يبين لنا كيفية مواجهة وعلاج حالة الغضب التى تنتاب الإنسان خلال ممارسته لأدواره فى الحياة ، فيرى ضرورة معرفة الأسباب التى تؤدى إلى الغضب والعمل على تلافيها والبعد عنها ، والصفح عمن تسبب فى إثارته وإدخاله فى حالة الغضب ، والروية فى إتخاذ القرار حيال مصدر الإثارة والغضب ، لاتخاذ الأسلوب الأمثل للقضاء على أسباب الغضب نهائيًا ، واستخدام أسلوب التغافل وعدم التركيز على مصدر الإثارة وإهماله . الأمر الذى يؤدى بالإنسان الذى أصيب بالغضب إلى تهدئة النفس وسكونها ، مما يساعد الإنسان على الخروج من هذه الحالة إلى حالة السلام النفسى فتبطل شهوة الانتقام من مصدر الغضب ، وتستريح النفس من الإثارة السلبية المترتبة على إصابة الإنسان بالغضب .

الخوف :

يتعرض " مسكويه " للكتابة عن الخوف(١) كأحد الحالات النفسية التى تصيب الإنسان فى بحياته ، ويبدأ بتحديد المقصود بالخوف ؛ فيرى أنه " الخوف الشديد فى غير موضعه " أى يصاب بالإضطراب الشديد بسبب أشياء لا ينبغى أن تحدث مثل هذا الاضطراب ومن أجل ذلك اعتبره حالة مرضية.

ويتعرض بعد ذلك لذكر أسبابه التى منها ، توقع مكروه ، انتظار محظور ، والتوقع والانتظار لما يحدث فى مستقبل الزمان .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢١٥ : ٢٢٤)

ويرى أنه يجب على الفرد العاقل ألا يخاف من الأحداث اليسيرة أو العظيمة ، أو التى يظن أنها ضرورية أو ممكنة الحدوث ، وسواء كان مصدرها نحن أو غيرنا ، مادامت أسبابها معروفة ومعلومة . ذلك لأن الأحداث الممكنة الوقوع ، قد تقع وقد لا تقع ، ومن هنا كان على الإنسان ألا يضع نفسه فى دائرة الخوف . بل يجب عليه ألا يصمم على أنها ستقع . الأمر الذى يؤدى إلى الوقوع فى الخوف الحقيقى .

ثم يضع سبل العلاج من الخوف إذا ما تملك إحساس الفرد من وقوع الأحداث التى تجعل الإنسان فى دائرة الخوف - منها أن يكون الخوف من المكروه على قدر حدوثه ، وأن يحسن الظن بالحياة ، فيشعر بالعيش الجميل، وأن يتحلى بالأمل القوى ، وترك الفكر فى بكل ما يمكن أن يقع من المكاره، أو من الظروف المحيطة بنا والتى نخاف عواقبها ، كأن لا تقدم على أمر لا تؤمن عواقبه ، وأن نترك الذنوب ونبتعد عن أسباب ارتكاب الجنايات .

هذا ؛ وينتقل " مسكويه " بعد ذلك إلى عرض أحد أنواع الخوف التى تنتاب الإنسان خلال حياته وهو " الخوف من الموت " ، فيرى أن هذا النوع من الخوف يحدث لمن لا يدرى ما الموت أو لمن لا يعرف أين تصير نفسه. بمعنى أنه من يعلم ما الموت ، وأين تذهب نفسه بعد الموت لن يصاب بهذا النوع من الخوف . كما نجد أن "مسكويه" يرى أن الموت موتان ؛ موت إرادى ، وموت طبيعى . ويتمثل الموت الإرادى فى قدرة الفرد على إماتة الشهوات ، وترك التعرض لها ، وأن الموت الطبيعى هو

مفارقة البدن .

ويذكر لنا الأسباب التى تدعو الإنسان للإحساس بخوف الموت ، منها من يظن أن للموت ألماً عظيماً - غير ألم المرض الذى قد يسبقه ، وقد يؤدى إليه - ومن يعتقد أن هناك عقوبة ستحل به بعد الموت ، أو من لا يدرى ماذا سيحدث بعد الموت ، أو أسفه على ما خلف من متاع الدنيا . ويرى أن كل ما تقدم يعتبر ظنون باطلة يجب عدم الاعتقاد فى صحتها لأنه لا حقيقة لها .

وينتقل بعد ذلك لبيان حقيقة الموت كما يراها ويعتقدها . حيث يؤكد " أن الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها " وهى البدن . ويضرب المثل لبيان حقيقة الموت كما يراها ويعتقدها لبيان هذا بقوله " كما يترك الصانع استعمال آلاته " .

ثم يعرض وجهة نظره فى النفس . حيث يرى أنها " جوهر غير جسمانى ، وليس عرضًا ، وأنها غير قابلة للفساد " ويرى أن هناك كثيراً من وجهات النظر فى هذا الأمر ، وكثيراً من الشروح التى قدمتها العلوم المختلفة لبيان كنه النفس وحقيقتها .

ويؤكد على أنه من يدرك كلا من حقيقة الموت ، وجوهر النفس ، اطمأنت نفسه ، وعلم أن النفس مفارقة البدن بذاته ، وخواصه ، وأفعاله ، وأثاره وعندئذ لا يصاب بخوف الموت ، حيث إن من يعلم إلى أين تصير النفس ، ويعى كل ماتقدم من بيان لجوهرها ، وحقيقة الجسد ، فإنه لا

يخاف الموت . والعكس على خلاف ما تقدم ، وعندئذ يكون سبب الخوف ومصدره هو جهل الإنسان بحقيقة الحياة ، وحقيقة الجسم والنفس . ومن أجل هذا سعى العقلاء إلى طلب العلم والمعرفة ، ورأوا أن الراحة الحقيقية تكون من الجهل، والتعب الحقيقى الذى يصيب الإنسان هو تعب مصدره الأساسى جهل الإنسان بحقيقة ما تقدم .

الحزن :

ويتناول " مسكويه " الحزن(١) كأحد العوامل أو المتغيرات التى تنتاب الإنسان فى حياته وقد تؤدى إلى مرضه نفسياً ، ويعرفه بأنه " ألم نفسانى يعرض لفقد المحبوب ، أو فوت المطلوب " وهو بذلك يشير إلى أهم المسببات للحزن وهى بعد المحبوب ، وعدم وصول الإنسان إلى ما كان يتطلع ويسعى إليه . هذا ؛ ويضيف عدداً آخر من الأسباب منها : عدم قدرة الإنسان على الحصول على ما يشتهى وحسرته على ما يفقده منها .

ويقدم بيان لكيفية التغلب على ما ينتاب الإنسان من حزن على فقد من أحب ، أو ما فاته من ملذات الدنيا ، وذلك عن طريق إدراك أن جميع ما فى عالم الكون غير ثابت ، ولا باق وعندئذ يدرك بعقله أنه لا ينبغى أن يتطلع - طمعًا - فيما لا يقدر الحصول عليه - المحال - فتستقر نفسه وتهدأ وتبتعد عما يحزنها أو ما يسبب لها ذلك .

وإذا أراد الإنسان أن يتحصن - إلى حد ما - ضد ما يثير نفسه فى

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٢٤ : ٢٢٨)

الحياة الدنيا ، ويؤدى به إلى الحزن ، عليه أن يكون سعيه لمتطلباتها ، وتحقيق ما يتطلع إليه يتفق مع ما لديه من إمكانياته وقدراته ، وان استطاع أن يحقق اشباعاته من هذه المتطلبات عن طريق أخذ مقدار ما يناسبه من الحاجات مما يدفع عنه الإحساس بالألم ، ويوقع نفسه فى حالة من الحزن ، كأن ياخذ من الطعام ما يسد إحساسه بألم الجوع ، ومن الملبس ما يغطى جسده ويستره . وأن يترك فكرة الاستكثار لأن الأخيرة قد تدفع الإنسان إلى المباهاة والإفتخار ، فإذا ما فاتته ولم يحققها أصابه الأسف ودفع بنفسه إلى مشاعر الحزن .

هذا ؛ ويقدم دليلاً لإثبات صحة وجهة نظره فى أن الإنسان يستطيع أن يعالج ما قد يصيبه من حزن عن طريق استشعار جمال واقعه ، والرضا به ، فإن هذا من شأنه أن يجعل الإنسان فى حالة من السرور بعيداً عن أسباب الحزن . ويرى أنه إذا لم يستطع الإنسان أن يدرك هذا الأمر فى حياته ، فليطلق نظرة لاستشعار واقع الناس فى حياتهم ومعايشهم فإنه سيعلم تمام العلم صحة ماتقدم . حيث يجد أن هؤلاء على اختلاف حرفهم ومذاهبهم وطبقاتهم يستشعرون الراحة والإطمئنان لرضاهم بواقعهم واستشعارهم بجماله ، وعندئذ يبتعد عن الوقوع فى دائرة الحزن .

ويؤكد " مسكويه " على أن الإنسان هو الذى يجلب لنفسه حالة الحزن، ويدعم هذا الرأى بوجهة نظر " الكندى " فى هذا الأمر . بل ويتفق معه فيما يقول حيث يريان أن الحزن ليس ضرورياً فى حياة الإنسان كما أنه ليس طبيعياً فى تكوينه . ومن أجل هذا فإن ما يحدث من حزن للإنسان

هو مصدره . حيث إن الإنسان إذا فقد ملكاً أو طلب أمراً ولم يجده لحقه الحزن، ثم نظر فى حزنه وجد أن أسباب حزنه ليست ضرورية لأن غالبية الناس ليس لهم ذلك الملك ، ومع ذلك فهم لا يضعون أنفسهم فى دائرة الحزن .

وواقع الأمر فى حياة الإنسان يؤكد صحة وجهة نظر " مسكويه " وغيره ممن تناولوا هذه الحالة بالدراسة والبحث . حيث نلاحظ أن كثيراً من الناس قد فقدوا الأعزاء من أهليهم وذويهم ، وسرعان ما يمارسون حياتهم كأن لم يحدث لهؤلاء الأعزاء أو الأحباب أو الأصدقاء شىء أو فقد وكذلك من فقدوا كثيراً من مقتنياتهم الغالية الثمينة أو المال والضياع والمقتنيات الغالية .

ولهذا فإن " مسكويه " يرى أن الحزن حالة نفسية مرضية عارضة غير طبيعية فى تكوين الإنسان ، ولا يستطيع أن يدرك هذا المفهوم إلا من استعمل عقله فيما يظن أنه كان ينبغى أن يكون له ، وأن يكون معه بصورة أبدية .

متغيرات نفسية

يتناول " مسكويه " عدداً من المتغيرات النفسية التى تسهم فى تحديد نمط الشخصية الإنسانية منها ؛ العُجب[١] ، الذى يحدده بأنه "ظن كاذب بالنفس فى استحقاق مرتبة هى غير مستحقة لها " ويرى

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٠٥)

أنه ينبغى علـــى الإنســـان أن يكاشـــف نفســـه بعيوبـــه ونقائصـــه التـــى تعترى شخصيته لأن هذا مـــن شـــأنه أن يجعلـــه أكـــثر إدراكـــاً بحاجتـــه لغـــيره مـــن البشـــر لأن الله ســـبحانه وتعـــالى قـــد وزع القـــدرات والإمكانيات على البشر بقدر . الأمر الـــذى يجعـــل الإنســـان الفـــرد فـــى حاجة إلى فضل غيره وعندئذ يبتعد تماماً عـــن العجـــب والغـــرور الـــذى قد يصيبه ، ويصبح محدداً لنمـــط شـــخصيته .

كما يعتبر أن الفخـــر[١] متغـــير آخـــر مـــن المتغـــيرات التـــى قـــد تصيب الإنسان فى حياته ، ويحدده بأنـــه " المباهـــاة بالأشـــياء الخارجـــه عنا " حيث إن الإنسان الذى يباهى بما ليـــس فيـــه فإنـــه يبـــاهى بمـــا لا يملكه لأن الأشـــياء المتداولـــة بيـــن النـــاس لا ينبغـــى أن يبـــاهى بـــها الإنسان لأنـها إلـــى زوال .

ومن هذا يتضح أن الفكر الاسلامى قد لفت النظـــر إلـــى عـــدد مـــن المتغيرات النفسية الجديـــدة التـــى تشـــكل شـــخصية الإنســـان وأن مثـــل هذه المتغيرات النفسية التى قد تنتاب الشـــخصية المســـلمة تضـــر بـــها . ولهذا حذر منها الدين حتى تكون النفـــس ســـوية ، وأن تعيـــش حياتـــها وهى على أفضـــل مســـتوى مـــن الصحـــة النفســـية الســـليمة وذلـــك إذا استطاعت أن تبعتد عن مثل هـــذه المتغـــيرات .

---

[١] تهذيب الأخلاق ص (٢٠٥)

المزاح :

ويشير " مسكويه " إلى المزاح[٢] الذى يحدث بين الناس كمتغير من المتغيرات التى تحدث أثرا فى النفس . ويرى أن المعتدل منه يحقق الهدف من ممارسته ، ويكون محمودا . بينما الذى يغالى الفرد فى استخدامه ويستمر فى ممارسته بإفراط حتى لا يستطيع الفرد أن يقف عند حد معين منه ، فإن مثل هذا النوع من المزاح يؤدى إلى آثار نفسيه سيئة . حيث إن المبالغة فى ممارسته بين الأفراد تؤدى إلى إثارة النفوس وغضبها . بل وقد تؤدى إلى تكوين وإبقاء قدر من الحقد والكره على من يمارسه بهذه الطريقة .

التيه :

ويتناول " مسكويه "التيه[١] كمتغير نفسى من المتغيرات التى قد تنتاب الناس فى حياتهم والذى يعرفه بأنه متغير زائل ، غير موثوق ببقائه، ويقترب من العجب ، إلا أن الفرق بينهما أن المعجب يكذب نفسه فيما لا يظن ، أما التيه يته على غيره .أى أنه يدرك حقيقة نفسه ، فلا يكذبها بفعله الذى يوصف بالتيه على غيره من الناس .

ويشير "مسكويه " بذكر هذا المتغير إلى حالة نفسية كثيرا ما تنتاب النفس البشرية إذا ما أطلق لها العنان فيما تتطلع إليه من إمتلاك الأشياء وتحقيق الرغبات والشهوات . ويذكر لنا أن الإنسان يمكن أن يتخلص من

---

[٢] تهذيب الأخلاق ص (٢٠٧)

(١) تهذيب الأخلاق ص (٢٠٧)

هذا الإحساس قبل أن يمتلك النفس ويستبد بها .

العشق :

كما يتناول متغير آخر من المتغيرات التى تنتاب الإنسان فى حيّاته وهو " العشق "[١] ، والذى يعرفه بأنه "إفراط فى المحبة ، وأنه أخص من المودة ، وذلك لأنه لا يقع إلا بين إثنين فقط ، وهو يقع لمحب اللذة بإفراط وهو حب مذموم. ولمحب الخير بإفراط وهو محمود "

ويذكر لنا أن العشق منبثق من المحبة ، وأنه على مدى ما يناله العاشق من المعشوق من اللذة والمنفعة ، ولذلك يلاحظ "مسكويه" أن هذا النوع من المحبة يتسم باستمرارية الشكوى ، وتبادل الظلم بين العاشق والمعشوق حسب هدف كلاً منهما . حيث إنه لا يكاد يعتدل مدى اللذة والمنفعة بينهما .

ومن هذا يتضح أن "مسكويه" يعرض للعشق كأحد فروع المحبة التى يزداد معدلهاعن الطبيعى . فضلاً عن أنه يقع بين إثنين لا ثالث لهما ، ولذلك فهى محبة خاصة جداً. كما أنه - العشق - يعتمد على مدى ما يناله العاشق من المعشوق من اللذة المادية ، ولذلك كثيراً ما تحدث الخلافات بين العاشقين.

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (١٥١ :١٥٦)

المحبة :

ويتناول "مسكويه " المحبة [٢] كأحد المتغيرات النفسية التى تعترى الإنسان خلال مراحل العمر المختلفة . ويعرض لنا عددا من أنواع المحبة التى قام بتقسيمها على أساس عدداً من الأسباب منها :ــ

* المحبة التى يكون سببها اللذة : وهذا النوع من المحبة يرى أنه يحدث سريعا ، وينحل سريعا ، حيث إن اللذة سريعة التغير ، وأن الإنسان عندما يسعى لتحقيق هدف بناء على لذة معينة ، فإنه سرعان ما يعود إلى حالته قبل اللذة بعد حصوله عليها .
* المحبة التى يكون سببها الخير : وهى نوع سريع الحدوث إلا أن أثرها يظل باقيا فى نفس الإنسان لمدة طويلة ، ولذلك تنحل هذه المحبة وتتلاشى ببطء .
* المحبة التى يكون سببها المنافع :وهى محبة تتم ببط ء حسب مهارة من يسعى للإفادة منها إلا أنها سرعان ما تنتهى بإنتهاء تحقيق الغرض من إنشائها .
* أما النوع الرابع هى التى تتكون على أساس مختلف الأسباب السابقة ، ولذلك فهى تتكون ببط ء وتتلاشى ببط ء أيضا .

ومن الملاحظ أن "مسكويه " يركز على نوعية المحبة وعلى أسبابها أكثر من التركيز على الأثر النفسى المترتب عليها . إلا أنه فى تحديد كل نوع منها يرى أن مدى مدى استمراريته بين المحبين يعتمد على

---

(٢) تهذيب الأخلاق ص (١٤٩ :١٥٨)

عمق الهدف من إنشائه ، وكذلك نوعيته .ولهذا نلاحظ أن المحبة التى تنعقد ببط ء وتنحل ببطء هى تلك التى ترتبط بمجالى الخير أو بتركيب مختلف الأسباب التى حددها لحدوث المحبة بين الناس .

التعويض :

هذا ؛ ويشير "مسكويه " إلى "التعويض "(١) الذى يعتبر أحد الحيل اللاشعورية التى أشار إليها علماء النفس فى العصر الحديث ، والتى يستخدمها الإنسان بهدف الوصول إلى قدر من الإتزان النفسى يعينه على استمرارية حياته بما يمكنه من تحقيق أهدافه فى الحياة : حيث يذكر لنا فى معرض حب الوالد لولده هذه الحيلة ، عندما قال " إن الوالد يحب لولده جميع ما يحب لنفسه ، بل ويسعى ...فى تكميله بكل ما فاته من نفسه طوال عمره " .

ومن هذا القول يبدو واضحا أن " مسكويه " يكتب لنا عن متغير من المتغيرات النفسية التى يستخدمها الوالد من أجل تحقيق ما فاته من إشباع حاجات ، أو تحقيق أهداف أو أغراض فى حياته لولده . مدركا تمام الإدراك أن هذا العمل من شأنه أن يحقق قدرا من الراحة النفسية له ولولده .

---

(١) تهذيب الأخلاق ص (١٥٨)

المراجع

١ــ إبراهيم مدكور وآخرون . معجم أعلام الفكر الإنسانى . المجلـد الأول . القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤

٢ــ ابن مسكويه . تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . تحقيق ابن الخطيـب .ط . (١) القاهرة : المطبعة المصرية ، (ب . ت) .

٣ــ ابن مسكويه . تهذيب الأخلاق . بيروت : دار الكتب العلميـة .ط . (١) (١٤٠٥هـ /١٩٨٥ م) .

٤ــ عبد العزيز عزت . ابـن مسـكويه : فلسـفته الأخلاقيـة .ط . (١) القاهرة: مطبعة الحلبى ، ١٩٤٦ .

من الدراسات النفسية
في
التراث العربى الإسلامى

الدراسة الثانية

الدراسات النفسية
عند
"ابن حزم الأندلسى"

(٣٨٤/ ٤٥٦هـ)

تعريف بابن حزم:

هو الإمام الجليل أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم؛ وهـــو أحد أئمة الإسلام، ينتمى إلى مذهبه عدد كبير من أهل الأنـــــدلس، وكـــان يطلق على مذهبه " الحزمية". ولد -رحمه الله- بقرطبة وكانت له ولأبيـــه من قبله رئاسة الوزارة، وتدبير المملكة، فزهدهـــا وانصـــرف إلـــى العلـــم والتأليف.

ويؤكد المؤرخون والذين كتبوا عن " ابن حزم " أنه نشأ فى أســـرة تتمتع برغد فى العيش، وسعة فى الرزق، وأن والده " أحمد بن ســـــعيد " من أشهر أهل العلم والثقافة، وهذا يعنى أن " ابن حزم " نشأ فى بيت علـــم وثقافة ولذلك اتصف بقدرته العالية فى التأليف.

ويتميز " ابن حزم " بأنه حافظ جيد، وفقيه، وباحث يستنبط الأحكـــام من الكتاب والسنة، والقدرة على النقد، حيث كـــان كثـــير النقـــد للعلمـــاء والفقهاء. ولذلك ظلوا يطاردونه فى بـــلاد الأندلـــس حتـــى توفـــى بقريـــة "منتليشمه" سنة ٤٥٦ هــ عن عمر (٧١) سنة.

هذا؛ وقد اتفق أهل الأندلس على أن " ابن حزم " أجمـــــع النـــاس قاطبة لعلوم الإسلام، ولذلك كانت له القدرة الفائقة على استنباط الأحكام من الكتاب والسنة. وقد شهد له شيوخه الذين تعلـــم علـــى يديـــهم بـــالصلاح، والخير والفضل، وحسن الخلق، ورجاحة العقل، والخشوع، وكثرة البكـــاء، والتحرى فيما يسمع.

وقد اشتهر بثقافته الواسعة، وعلمه الغزير ولذلك وصف بأنه موسوعة علمية أحاطت بكثير من المعارف فى عصره. حيث كان على علم واسع باللسانيات، والبلاغة، والشعر، والسنن، والآثار، والأحكام، والفضائل، والملل والنحل ... ويؤكد كل من تناول " ابن حزم " بالدراسة والبحث أنه لم يجد باباً من أبواب العلم إلا وكتب فيه عن فهم وإدراك ووعى.

وقد كان " ابن حزم " يتميز بعدد من الصفات التى أهلته لأن يكون على هذه الدرجة العالية من العلم والمعرفة، كالحافظة القوية، وتناسق الفكر، والتدين والصلاح. حيث كان عاملاً بعلمه، وكان متواضعاً، شاكراً لأنعم الله التى أنعم بها عليه. ومن أبرز صفاته وخلقه العفة والطهر والوفاء، والحزم والشدة فى رده على خصومه.

وله عديد من الكتب والمؤلفات منها ؛ مسائل أصول الفقه، وكتاب الفصل فى الملل والنحل، والتقريب فى حدود المنطق، وطوق الحمامة، وكشف الالتباس ما بين الظاهر وأصحاب القياس، وأخلاق النفس، و البيان فى حقيقة الإنسان، ورسالة فى الأمهات، وأمهات الخلفاء، ومجموعة رسائل ابن حزم منها فى الغناء؛ مباح هو أم محظور؟ فضل الأندلس وذكر رجالها، فصل فى معرفة النفس بغيرها وجهلها بذاتها، مراتب العلوم، المفاضلة بين الصحابة، وأخلاق والسير فى مداواة النفوس، وهو الكتاب الذى اعتمدنا عليه فى محاولة بيان عدد من الدراسات النفسية فى التراث الإسلامى.

هذا ، وقد بلغ عدد مؤلفات "ابن حزم" حوالى (٤٦) ستة وأربعون مؤلفاً، استطاع الباحثون الحصول عليها وتحقيق بعضها، وقد حقق بعض هذه المؤلفات أكثر من مرة فى أماكن متفرقة من العالم. ويشير الباحثون إلى أنه توجد بعض المؤلفات المفقودة لابن حزم، والتى قد تبلغ حوالى (٨٥) خمسة وثمانون مؤلفاً .

وتتضمن هذه المؤلفات كثيراً من الموضوعات ذات الاتصال الوثيق بالإنسان وأدبه، وخلقه وسلوكه، والسير الذاتية. هذا ، فضلاً عن اهتمامه بمختلف نواحى الحياة الأندلسية الاجتماعية والاقتصادية، والعلمية، والثقافية والفكرية.

كما يستنتج من قراءة هذه المؤلفات -كما اتفق لدى الدارسين لابن حزم- انه يتمتع بمقدرة عقلية عالية، وفهم دقيق شامل، و نقد بصير فضلاً عن التزامه بالأسلوب العلمى فى تأليفه. كل هذه الحياة المليئة بمختلف مجالات الدراسة والبحث لابن حزم هى التى دعت الباحث إلى الإشارة إليه من خلال كتاب "الأخلاق والسير فى مداواة النفوس" كمحاولة للفت أنظار الباحثين إلى هذه التراث العظيم لدراسته وتحليله بهدف الوصول إلى العديد من الدراسات فى مجال علم النفس من وجهة نظر هذا العالم الجليل.

متغيرات ذات ارتباط بالصحة النفسية

تناول "ابن حزم" فى كتابه " الأخلاق والسير فى مداواة النفوس" بعض العوامل ذات الارتباط بعلم النفس على سبيل المثال ، نجد أنه قد تحدث عن عوامل الراحة النفسية * للإنسان. وهو فى حديثه عن هذه الأسباب يتعرض بالشرح والتوضيح لعلاقة الإنسان المؤمن بربه وخالقه، ومدى قدرة الفرد على ضبط النفس حيال مختلف مثيرات الحياة التى لا تتفق وقيم ومعايير الدين الحنيف.

وهو يرى أن الإنسان المؤمن يستمد قدرته على ضبط النفس من الخوف من الله فى كل ما يصدر عنه من أقوال و أفعال، ويذكر لنا أن هذا الضبط يتم عن طريق نهى النفس عن الهوى، ذاكراً أن هذا يتم بردعها - أى النفس- عن الطبع الغضبىّ والشهوانى. وهو بذلك يبين لنا أن للنفس نزعات غضبية وأخرى شهوانية وأن الإنسان إذا استطاع أن يمنع نفسه عن الاستجابة لأى من نزعات النفس الغضبية أو الشهوانية استطاع أن يحقق قدراً كبيراً من الراحة النفسية.

ويذكر لنا "ابن حزم" أن الإنسان المؤمن يستطيع أن يجنب نفسه الآثار المترتبة على استجابة الهوى التى تعنى الاستجابة للنفس الغضبية أو الشهوانية باستخدام المنطق الموضوعى الذى يقدر عليه الإنسان، ويتميز به عن باقى مخلوقات الله.

• الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص ص (١٩، ٢٠)

ويعتمد فى بيان وجهة نظره هذه على ما ورد فى القرآن الكريم من قوله تعالى " وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى " (النازعات : ٤٠ ، ٤١). وكذلك حديث الرسول ﷺ لا تغضب " وأمره عليه السلام " أن يحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه" على أساس أن هذين الأمرين يحققان للإنسان كل فضيلة والتى بهما يستطيع الإنسان أن يشعر بالراحة النفسية. ذلك أن فى نهيه -عليه السلام- عن الغضب ردعاً للنفس ذات القوة الغضبية عن هواها. وفى أمره -عليه السلام- أن يحب المرء لغيره ما يحبه لنفسه ردعاً للنفس عن القوة الشهوانية. الأمر الذى يجعل الإنسان على درجة من السواء النفسى. حيث يقيها بهذا الردع وقوعها فى دائرة القلق والاضطراب.

الهم:

هذا كما تناول " ابن حزم" الهم * كأحد المتغيرات النفسية المسببة للألم والاضطراب النفسى للإنسان، وشغل نفسه بالتفكير فى كيفية إزالته حتى يمكن أن ينعم الإنسان بالراحة النفسية. ويؤكد على أن الإنسان، أياً كان هذا الإنسان لا يسعى إلى هم أبداً عندما قال: " ليس فى العالم -مذ كان إلى أن يتناهى- أحد يستحسن الهم" ومن أجل هذا رأى أن السبيل الأفضل لطرد الهم وإزالته من النفوس هو التوجه إلى الله سبحانه وتعالى، وذلك بالعمل للآخرة. على أساس أنه عندما تدبر دور المال فى إزالة الهم، وجد أنه ينحصر

---

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص ص (١٣،١٥)

فى مجال طرد الهم الناتج عن الإحساس بالفقر، أما الهم الذى تتعدد وتتنوع مصادره فإن الله سبحانه وتعالى كفيل بإزالته إذا لجأ العبد إلى ربه .

ولذلك يؤكد "ابن حزم" على عملية توجه الإنسان إلى الله بالعمل المخلص الصادق لنيل الثواب فى الآخرة، وأنه هو السبيل الوحيد لإزالة الهم. بل والإحساس بالسرور على اعتبار أن الإنسان فى حياته يمتحن فى كثير من الأمور المرتبطة بدرجة شعوره بالأمن والاطمئنان. فإن أصابه مكروه أو أذى، وتوجه بالعمل الصادق إلى الله فإنه سبحانه وتعالى قادر على إنزال السكينة عليه. فضلاً عن اعتقاده الجازم بنيل ثواب ما أصابه فى الآخرة، فيتحول الإحساس بالألم إلى الإحساس بالسرور. وفى قصص الصحابة رضوان الله عليهم ما يؤكد وجهة نظر "ابن حزم" هذه.

وبناء على هذا فإننا نجد أن الإنسان المؤمن لديه من القدرة ما يمكنه من التغلب على الآثار النفسية المترتبة على الأحداث المؤلمة أو ما يواجهه فى حياته من متاعب وهموم، بل تحويل هذه الآلام إلى مشاعر السرور وذلك عندما يضع فى اعتباره ما سيناله فى الآخرة من خير جزيل عند الله سبحانه وتعالى جزاء ما صبر.

المحبة:

ويشير "ابن حزم" إلى عامل نفسى هام من العوامل التى تميز

الإنسان عن غيره من مخلوقات الله، وهو عامل المحبة * ويتحدث عن أسباب حدوثها فى النفس البشرية. ويرى أن الاستحسان هو فى مقدمة الأسباب التى تدعو الإنسان إلى حب غيره. ويذكر أن هذا الاستحسان يتمثل فى إدراك الفرد للجوانب الحسنة والإيجابية فى المنظور، وكذلك استحسان أخلاقه. الأمر الذى يدعو الإنسان إلى السعى لمصادقة المنظور ثم الإعجاب به بما يدعو إلى الرغبة فى استمرارية النظر إلى المحبوب، والقرب منه، والألفة به، والإحساس بالوحشة إذا غاب عنه.

هذا ؛ ويزيدنا "ابن حزم" بعديد من العلاقات التى تشير إلى أن "س" من الناس محب لـ "ص" منهم فيذكر أن المحب يرغب فى أن يكون ذا حظوة من محبوبه، وأن يتميز بمكانة رفيعة عنده، وأن ينعم بالمجالسة معه، والحديث إليه، وأن يشعر بمؤازرته. ثم يبين لنا أيضاً أن أطماع المحب تزداد يوماً بعد يوم فى محبوبه؛ و يبدو هذا فى رغبته فى الالتصاق به، ومخالطته لجسمه، والاستكثار من استمرارية هذا الاتصال. ولذلك نجد أن الأبوين يمارسان هذا التلامس مع أطفالهم فيدلان بذلك على حبهما لهم، فضلاً عن التقبيل والعناق كمؤشرات لحبهما للأبناء.

ويتحدث -أيضاً- عن درجات المحبة، فيرى أن من درجاتها " الكلف" وهى درجة يصل بها المحب إلى شغل باله بمن يحب. ويذكر لنا أن هذه الدرجة يتميز بها العُشاق، وكثيراً ما تُذكر فى باب الغزل. ثم يشير إلى درجة أخرى وهى " الشغف" وتتمثل هذه الدرجة

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص ص (٥١،٥٦)

فى بيان عدد من المظاهر على المحب كامتناع النوم عنه، وعدم الأكل والشرب إلا القليل اليسير، وقد يؤدى شغف المحب بمن يحب إلى حد الوسواس المؤدى إلى المرض المفضى إلى الموت. هذا؛ وتعتبر هذه الدرجة غاية فى ارتفاع درجة المحبة.

ومما تقدم يتضح لنا أن " ابن حزم" تناول المحبة كعامل هام من العوامل النفسية التى تشكل بعداً أساسياً فى حياة الإنسان وخاصة فى علاقته بغيره من الناس. ذاكراً أسبابها، ومستوياتها، ومظاهرها.

الغيرة:

يذكر " ابن حزم " أن الغيرة عامل هام يرتبط ارتباطاً وثيقاً بعامل المحبة. حيث يرى أن ارتفاع معدل الغيرة * يؤكد ارتفاع درجة المحبة بين المحبين. هذا؛ ويحلل هذا المتغير، فيذكر أنه "خلق فاضل مركب من النجدة والعدل"على أساس أن من عدل كره أن يتعدى حرمة غيره، وأن من يتعدى غيره إلى حرمته. وأن من كانت النجدة طبعاً له، حدثت له العزة، ومنها تحدث الأنفة من الاهتضام. وعندئذ يتولد لدى مثل هذه النوعية من البشر الإحساس بالغيرة التى تدفع عن صاحبها وعن مبادئه كل ما يسوء إليه.

ومن هذا يفهم أن " ابن حزم" قد تناول عامل الغيرة من منطلق المفهوم الإسلامى الذى يدفع الإنسان إلى الحفاظ على

• الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٥٣)

كرامته، وإنسانيته، ودينه، ووجوده عندما يسعى غيره للتعدى على أى بعد من هذه الأبعاد الأساسية فى حياته.

كما يبدو واضحاً أن مكوناتها خيره -النجدة والعدل- فهى عامل بّناء يسهم فى الحفاظ على جوهر وطبيعة الإنسان الخيرة الطيبة النقية، على عكس هذا المفهوم عند أصحاب مدرسة التحليل النفسى. حيث يتولد عنها الحقد، والحسد، وما يترتب على ذلك من الرغبة فى الإيذاء والضرر، بل والتدمير.

سمات الشخصية

ويذكر " ابن حزم" عدداً من المتغيرات النفسية التى تبرز أهم سمات* شخصية الإنسان ومن هذه السمات ؛ الثبات وهو متغير يشير إلى مدى صحة أخلاق الإنسان على خلاف اللجّاج الذى يعنى عدم الثبات والاستقرار والذى يكون نتيجة اعتقاد الإنسان بباطل أو فساد. الأمر الذى يدعو صاحبه إلى عدم الالتزام بقول واحد أو سلوك محدد فى موقف معين. كما يضيف متغيراً أخر وهو الاضطراب ويعرفه بضده وهو الثبات.

ويتناول سمات أخرى ؛ كالعقل ، ويبرزه عن طريق استعماله ووظيفته ويؤكد على هذه الوظيفة التى تعين الإنسان على اجتناب المعاصى والرذائل. ويعتمد فى تأكيد وجهة نظره هذه على نص القرآن الكريم. حيث يرى أن من يعصى الله لا يعقل استناداً إلى

• الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص ص (٥٧،٥٩)

قوله تعالى " وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا من أصحاب السعير " (الملك: ١٠).

ويتناول أيضاً - الحمق - كسمة مضادة للعقل. حيث يرى أن الحمق يدعو الإنسان إلى ارتكاب المعاصى والرذائل، ولذلك اعتبر " ابن حزم" أن الحمق ضد العقل لأنه يجعل الإنسان لا يحسن استخدام العقل أو يوظفه توظيفاً صحيحاً. الأمر الذى يجعل صاحبه يخلط فى القول ويناقض فعله قوله.

هذا؛ ويشير " ابن حزم" إلى الدهاء كأحد السمات التى تحدد الشخصية الإنسانية، وقد يتصور بعض الناس أن هذه السمة ترتبط بالمستوى العقلى للفرد. بينما يرى " ابن حزم" أنه ليس من العقل أن يتصف الإنسان بالدهاء، ذلك لأن مثل هذا الشخص ينظر إلى الحياة من جانب واحد فقط. حيث يتمثل فى إحكام أمر الدنيا عن طريق التودد إلى الناس بما يوافقهم، وإن كان هذا بالباطل أو بعدم مراعاة مبدأ العيب. فمثل هذا الشخص يسعى بالدهاء إلى زيادة ماله وتحقيق جاه أو الوصول إلى سلطان بكل الطرق والوسائل بصرف النظر عن صحتها أو بطلانها أو ارتكاب المعاصى أو الرذيلة.

ويقدم عدداً أخر يحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث لتوضيح المفهوم الدقيق لهذه المتغيرات التى تشير إلى الشخصية الإنسانية المحترمة من وجهة نظر " ابن حزم" وهى الحزم، الوقار، والرزانة. حيث يعتبرها محددات للشخصية الملتزمة السوية. وقد اعتبر أن الحزم هو

"السعى فيما ذكر بما فيه". والوقار هو "وضع الكلام موضعه، والتوسط فى تدبير المعيشة، ومسايرة الناس المسألة" . والرزانة يعتبرها "مسايرة الناس بالمسألة"، ويوضحها بيان ضدها وهو " السخف".

فضائل * الشخصية وعيوبها

ويذكر " ابن حزم" عدداً من الفضائل ** التى تتميز بها الشخصية الإنسانية والتى يعتبرها محددات للشخصية المسلمة. وفى مقدمة هذه الفضائل:

الوفاء: ويرى أن هذه الفضيلة مكونة من العدل والجود والنجدة، ويذكر لذلك عدداً من المبررات التى تجعل الوفاء نتاج هذه المكونات الثلاث.

الصبر: ويعتبره مكون من الحلم ونزاهة النفس، وهو تركيب من كل من النجدة والجود والأمانة والعفة نوعان من الفضائل الشخصية وتتركب من العدل والجود والقناعة وهى فضيلة مركبة من الجود والعدل. ثم يذكر فضيلة المداره ويرى أنها مركبة من الحلم والصبر والصدق والذى يعتبره مركب من العدل والنجدة.

---

* ويرى الباحث أن هذه الفضائل يقصد بها القيم فى أيامنا هذه.

** الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٥٩).

والمدقق فى هذه المتغيرات التـــى تشـكل محـددات هامـــة مـــن محددات الشخصية الإنسانية والتى قـــد أطلـــق عليـــها " الفضـــائل" يجـد أنها تمثل مجموعة من القيم التـــى تعتـــبر جانبــاً هامـــاً مـــن الجوانـــب الدافعية للشخصية، والتـــى علـــى أساســـها يصـــدر الســـلوك الإنســـانى وتحدد مـــدى فاعـــــليته مـــع أفـــــراد المجتمـــــع الـــذى يعيـــش فيـــه وينتمى إليـــه.

ويذكر لنا " ابن حزم" عدداً أخر مـــن أبعـــاد الشـــخصية الذميمـــه* وهو " الحرص" ويرى أنه يتكون من الطمـــــع، الحســـد، الجـــور، الشـــح، والجهل. ويتولد مـــــن الحـــرص كثـــير مـــن الأخـــلاق الذميمـــه كـــالذل، والســـرقة، والغضـــب، والزنـــا، والقتـــل، والعشـــق، والـــهم بـــــالفقر، والرغبة الشديد الملحة لأخذ ما بـــأيدى النـــاس.

هذا ويشير إلى صفة ذميمـــــة أخـــرى كـــالكذب، وهـــو يعتـــبر أن الكفر نوع من أنواع الكـــذب. حيـــث إن كـــل كفـــر كـــذب، ولأن الكـــذب حنـــس والكفـــر نـــــوع ينـــــدرج تحتـــه، ويـــــرى أنـــه يتكـــون مـــن الجبن، و الجهـــل. ذلك لأن الجـــبن يولــــد مهانـــة النفـــس، وأن الكـــذب مهين للنفـــس.

---

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٥٩)

عوامل نفسية أخرى

كما يذكر لنا " ابن حزم" بعض العوامل الهامة والأساسية التى يجب العمل مع الإنسان وفقها، ومنها "الثناء"* والذى يعتبر ضرورة للنجاح فى عملية الوعظ. حيث إن الواعظ عندما يثنى على إنسان بحضور الشخص المسىء فإن هذا من شأنه أن يقوى السلوك السليم ويدعو المسىء إلى تعديل سلوكه. وهذا ما يتحدث عنه علماء النفس المحدثين وهو التعزيز.

ويشير كذلك إلى متغير أخر من المتغيرات التى نالت اهتمام علماء النفس وهو "الفروق الفردية"** عندما ذكر أنه "من عجيب قدرة الله تعالى كثرة الخلق، ثم لا ترى أحد يشبهه أخر شبهاً لا يكون بينهما فرق".

تلك إشارات سريعة مما استطاع الباحث أن يصل إليها بهدف إبراز بعض من الدراسات النفسية فى التراث الإسلامى فى أحد مؤلفات " ابن حزم" والتى تحتاج إلى مزيد من الدراسة والبحث والتنقيب فى كتبه، حيث إنه يمكن أن نصل إلى الكثير من الموضوعات ذات الارتباط الوثيق بعلم النفس وخاصة ما يتصل بالشخصية الإنسانية المسلمة.

---

* الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٦٢ ، ٦٣)

** الأخلاق والسير فى مداواة النفوس ص (٦٣)

المـــراجع

• محمود علی صحابه . ابن حزم ومنهجـــه فـــی دراســـة الأديـــان - دار المعارف -القاهرة ١٩٨٣

• ابن حزم . الأخلاق والسير فی مداواة النفوس. تحقيق الطاهر أحمد مكـــی -دار المعارف-القاهرة١٩٨١

• ابن حزم . الأخلاق والسير فی مداواة النفـــوس. دار الكتـــب العلميـــة- بيروت-١٤٠٢هـ/١٩٨٢

من الدراسات النفسية
فى
التراث العربى الإسلامى

الدراسة الثالثة

الدراسات النفسية

عند

أبو اسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى

(٣٨٤ /٤٥٦هـ)

تقديـــم:

إنه ليس غريباً أن يتناول كثير من علمـــاء المسلمين فى بحوثهم ودراســاتهم عــن الإســلام موضوع علم النفس ، ذلك لأن القـــرآن الكريـــم ، والهدى النبوى الشريف قد خاطب الإنسان متمثـــلاً فى الجانب العقلى والجانب النفسى ، ولم لا .. وقد جاء الإسلام لتغيير اتجاهات الناس الدينية ، مـــن العبودية للأصنام إلى العبودية لله الواحد الأحـــد . وكيف ننكر ، أو ينكر بعض المشتغلين فى مجـــال علم النفس تناول علمــــاء الإســلام لكثــير مـــن الموضوعات ذات الصلة بمجـــال علـــم النفـــس . وخاصة أن قضية الاسلام ، ومنهجه تـــتركز فـــى تحرير العقل من الأفكار الخاطئة ، وتحرير النفـــس من الشهوات الدنيئـــة ، ودعـــوة الإنســـان إلـــى إستخدام عقله فى كل شئ .

التعريف بالكاتب :

هو أبو اسماعيل عبدالله بن محمد الأنصارى الهروى نسبة إلى مدينة هرات ، التى تعتبر عاصمة ولاية هيرات ، أكبر ولاية فى غرب أفغانستان. ولد سنة ٣٩٦ هـ وتوفى سنة ٤٨١هـ ، وهو من كبار علماء المسلمين، ولقب بشيخ الأنصار وشيخ الاسلام وخطيب العجم، وكنيته أبو اسماعيل ويصل نسبه إلى أيوب الأنصارى صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

عرف شاعراً وهو فى التاسعة من عمره ، وانتهى من دراسته للعلوم المتداولة وعمره أربعة عشر عاماً . وكان يتمتع بذاكرة قوية . فكان يحفظ حوالى ثلاثمائة ألف من الأحاديث النبوية الشريفة ، وكذلك ما يقرب من هذا العدد من أبيات الشعر العربى .

ويعتبر كتاب منازل السائرين الذى قام بتأليفه فى أواخر حياته من أشهر كتبه باللغة العربية . وقد اعتبره العلماء مرجعاً من مراجع التصوف والسلوك . وقد حظى بتدريس كتاب " مائة ميدان " من ميادين السلوك الإنسانى ذات الارتباط بالمحبة . ومن مؤلفاته أيضاً " علل المقامات " الذى يوجد فى مكتبة " فيينا بالنمسا " وقد قام بطبعه الأستاذ " بوركوى " وكتاب "كشف الأسرار " وهو تفسير للقرآن الكريم ، وقد طبع هذا التفسير فى طهران فى عشر مجلدات وطبع مختصراً فى مجلدين . وله كتاب آخر اسمه " مناجات خوجه عبدالله الأنصارى " وقد ألفها باللغة الفارسية المسجعة .

التعريف بالكتاب :

يضم كتاب منازل السائرين لأبى إسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى تسعة أقسام هى : البدايات ، والأبواب والمعاملات والأخلاق ، والأصول ، والأحوال ، والولايات ، والحقائق ، ثم النهايات . وضم كل قسم من هذه الأقسام عدداً من الأبواب . فمثلاً نجد أن التفكير والتذكر فى فصل البدايات.وأن الحزن والخوف والخشوع والورع والرغبة فى قسم الأبواب . وأن الثقة فى قسم المعاملات . وأن الرضا والحياء والانبساط فى قسم الأخلاق . وأن الإرادة فى قسم الأصول . وأن الفراسة ، والسكينة والطمأنينة والهمة فى قسم الأودية . وأن المحبة ، والغيرة والشوق والقلق فى قسم الأحوال . وأن السرور والنفس والغربة فى قسم الولايات ، كما يوجد قسم الحقائق لم يؤخذ منه شيئاً ، وأن المعرفة والحزن فى قسم النهايات .

ويعتبر هذا الكتاب من الكتب الهامة فى التصوف ، ولذلك نجده قد شرح سبع شروح بالعربية والفارسية ، وقد حققه الأب دى بوركس الدومنكى وقد جمع لهذا المخطوط ست وثلاثين مخطوطة من مختلف أنحاء العالم كتبت فيما بين القرن السابع والثالث عشر الهجرى .

ولا أدعى أن هذا المؤلف - منازل السائرين - الذى استخرجت منه بعض الدراسات النفسية كتاب فى علم النفس ، أو أن صاحبه قد ألفه تحت هذا المجال ، بل أنه كتاب فى التصوف الاسلامى ، وقد قصد صاحبه تأليفه فى مجال التصوف ، وخاصة أنه كان من كبار علماء المسلمين

المتصوفين. إلا أن صاحب هذا الكتاب يكتب معبراً عن حالات نفسية يعيشها الإنسان العادى والإنسان المتصوف ، ومن هنا كـان موضـوع اختيـارى لبعض الأبعاد والمتغيرات النفسية التى ترتبط ارتباطاً وثيقـاً بمجـال علـم النفس ، وذلك بهدف بيان أن موضوع علم النفس من الموضوعات العلميـة التى اهتم بها علماء الاسلام وإن لم تكن تحت عنوان علم النفس .

لقد تناول أبو إسماعيل عبد الله الأنصارى الـهروى (٣٩٦ - ٤٨١ هـ) فى كتابه منازل السائرين عدداً من الموضوعات ذات الصلة الوثيقـة بمجال علم النفس بمختلف فروعه ، حيث كتب باباً عن[١] التفكر ينطلق فيـه معبراً عن هذا البعد الإنسانى الذى تميز به عـن غـيره مـن المخلوقـات الأخرى من وجهة النظر الإسلامية . حيث تناوله بالتعريف والتصنيـف ، مبيناً رأيه - كأحد علماء الإسلام - فى هذا البعد الذى تناوله علماء النفس المحدثين بالشرح والتوضيح والدراسات التجريبية ، وفيمـا يلـى عـرض موجز لما طرحه " الهروى " لبيان وجهة نظره فى التفكر فقال إنه: " تلمـس البصيرة لاستدراك البغية " وبذلك يحدد مفهوم التفكر فى جملـة مقتضبـة تحتاج فى واقع الأمر لعديد من الشروح والبيان للكشف عن وجهـة نظـره فى هذا البعد النفسى الإنسانى .

هذا ؛ وقد قسم التفكير إلى ثلاثة أنواع هى ؛ الأول : فكر فى التوحيـد ذاته . ويشير عندما يتحدث عن هذا النوع إلى أن عقل الإنسان يعجز عندما يفكر فيما يفوق قدراته العقلية ، والثانى : فكر فى كيفية الصنعة . ويـرى

---

(١) لمزيد من التوضيح والبيان انظر شرح منازل السائرين عبـد المعطـى الاسـكندرى ٣٢/٢٩ .

أن الإنسان يستطيع أن يصل عن طريق هذا النوع من الفكر إلى حسن النظر ودقته الذى من شأنه أن يؤدى إلى الاستجابة لدعوة الله ، والثالث : فكر فى معانى الأعمال والأحوال . وبهذا النوع من الفكر يستطيع الإنسان أن يتخلص من رق الشهوات والتحرر منها ، فتتضح أحواله وتبدو أعماله خالية من الشبهات معبراً عن ذلك فى كل ما يصدر عنه من سلوك .

ومن هذا يبدو أن موضوع التفكير مسألة مطروحة عند علماء الإسلام، وأنه موضوع هام وأساسى ذلك لأنه سمة الإنسان الرئيسية التى تعينه على فهم ما يحيط به من أعمال . ويدرك به أن كل فعل لابد له من فاعل وكل مصنوع لابد له من صانع ، وبذلك يصبح للتفكير وظيفة أساسية فى حياة الإنسان ؛ ومن أهم هذه الوظائف فى اطار الاسلام - ادراك الفرد - عن طريق التفكير - أن الله واحد أحد ، وأنه سبحانه وتعالى قادر وعالم ومهيمن على هذا الكون . ومن أجل هذا يعتبر التفكير فريضة على المسلم لابد من ممارستها حتى يطلع العبد على قدرة الخالق ، وعلى حكمته. فضلاً عن أن التفكير السليم يدعو الإنسان المسلم إلى إصدار السلوك السوى والأعمال الطيبة التى تقوده إلى ما يهدف إليه من دنياه . وبالتفكير - كذلك - يستطيع الإنسان المسلم أن يدرك كثيراً من الحقائق ، منها حقيقة الدنيا فيستوى عنده - فى هذا الحال - إقبالها وإدبارها ؛ أى به يدرك الإنسان حقائق الأمور والأحوال والأفعال والأشياء .

هذا ؛ ويشير " أبو اسماعيل " إلى أن تفكير[1] الانسان له حدود

---

(١) منازل السائرين ص (١٣)

تحده. حيث لا يستطيع الوصول إلى معلومات ، أو إدراك مفاهيم تفوق قدراته العقلية ، وهو يضرب الأمثلة على ذلك ، مبرهناً على صحة قوله حتى لا يُدخل الإنسان عقله ونفسه فى أمور قد توقعه فى الزلل والخطأ . مؤكداً على أن حسن التفكير يمكن الإنسان من إدراك قدرة الخالق ، وما أنعم به عليه من نعم ، فيصل بذلك إلى عظمة المنعم فى قلبه وعقله . الأمر الذى يجعل الإنسان يجيب الله بالطاعة ، ويتخلص بذلك من رق نفسه وشهواتها . فضلاً عن أن الإنسان يتمكن بالتفكير من إدراك مراتب ودرجات الأعمال والاحوال مما يساعده على حصول العبرة والعظة . بالإضافة إلى أن التفكير - أيضاً - يمكن الإنسان من القدرة على القياس ، أى قياس الشىء بأمثاله فى الحكم .

ومن هذا كله تتضح وجهة نظر أحد علماء الدين الإسلامى فى أحد متغيرات علم النفس وأهمها وهو التفكير ويستبين مدى الاهتمام به ، وضرورة التركيز عليه ، والعمل على تنميته للحصول على ثمرته المنشودة منه فى إطار النظرة الإسلامية إليه ، وهى إدراك العبد لوحدانية الله الخالق المبدع ، وحسن سلوكه فى حياته الدنيا .

هذا ؛ ويحدد باباً آخراً للتذكر[١] ، ويرى أنه بعد التفكير ، وأن التذكر هو التخلص من الغفلة والنسيان اللذان يعيناه على ذلك . لأن التفكر طلب والتذكر وجود أى أن التفكر - بلغة عصرنا - طلب لتحقيق هدف أو مراد . والتذكر استدعاء معلومات موجودة بالفعل . كما يتعرض للعائد من

---

(١) منازل السائرين ص (١٥)

عملية التذكر وفائدته بالنسبة للإنسان فيذكر أنه يؤدى إلى الانتفاع بالعظة بعد استبصار العبرة . كما يتناول العلاقة بين التفكير والتذكر لبيان نوع الارتباط بينهما ؛ فيرى أن التفكير يؤدى إلى التأمل فى القرآن ، والتمنى ، فينتفع الانسان بذلك فى الحصول على العبرة ، ونيل العظة ، ويرى أن هذا يعتبر ثمرة من ثمار التفكر .

كما تناول بعد ذلك مفهوم الطمأنينة[١] وهو أحد المتغيرات النفسية التى تناولها الباحثون فى مجال علم النفس بالبحث والدراسة . وهو فى تناوله لهذا المتغير يحدد مفهومه أولاً ، فيرى أن الطمأنينة هى " سكون يقويه أمن صحيح شبيه بالعيان " ، وهو سكون أمن فيه استراحة وأنس . وتتحقق هذه الطمأنينة بالقلب الذى يذكر الله ، فتسرى فى نفسه طمأنينة الخائف إلى الرجاء ، والضجر إلى الحكم ، والمبتلى إلى المثوبة . كما تحقق بإحساس الروح بالكشف عما تقصده ، وبالشوق الذى تنشده ، وبالجمع الذى تتمناه . وهو يقدم الطمأنينة حسب مفهومه وخلفيته الإسلامية ، والتى ينطلق منها ليحدد مثل هذا المتغير الذى يشكل أهمية بالغة فى حياة الإنسان ، وفى تطلعه إلى الفوز بالحياة الأبدية ، التى من أجلها يسعى فى حياته الدنيا ، فهى طمانينة مستمدة من الإيمان بالله الواحد ، ولذلك يسعى الإنسان المؤمن حق الإيمان إلى تحقيقها بالسبل والوسائل التى يحددها الخالق الأعظم سبحانه وتعالى .

وهو يفرق بين الطمأنينة والسكينة ؛ فيرى أن السكينة صولة تطرق

---

(١) منازل السائرين ص ١٨

القلب ويغلب حكمها عليه ، وتورث خمود الهيبة أحياناً فيهدأ الإنسان ويخمد من هيبة لما يخشاه . فيزول عنه القلق والهلع ، ولذلك تعتبر السكينة نعتا ؛ أى تكون حيناً بعد حين ، وأنه لا يستمر مكثها فى القلق ، ولا تتوالى أمثالها. أما الطمأنينة فهى نعت لا تزايل صاحبها ، والطمأنينة سكون رجاء . وأمن وسرور ، والطمأنينة يستمر مكثها وتتوالى أمثالها فى نفس الإنسان . كما يرى أنها - أيضاً - على ثلاث درجات :

أ- طمأنينة القلب بذكر الله ، وهى طمأنينة الخائف إلى الرجاء ، والضجر إلى الحكم ، والمبتلى إلى المثوبة . ومثل هؤلاء يطمئن الواحد منهم بجميل عطاء الله ، وربما عند البلاء من جملة النعم .

ب- طمأنينة الروح فى القصد . وهى ناتجة عن بيان صحة القصد لله فى عمل الإنسان بالأوامر والنواهى ، ولذلك يغلب على قلبه رؤية التصريف فيه للحق أمراً ونهياً وفعلاً واقتداراً . وبذلك يصبح مطمئناً لنيل معالم الجمع .

جـ-طمأنينة شهود الحضرة إلى اللطف ، هى ناتجة عن مداومة المشاهدة مع صحة الكشف ، وطمأنينة إلى البقاء فى حالة الجمع .

النفس : ويقول "أبو اسماعيل" [١] وتسمى النفس نفساً لروح المتنفس به . والنفس لديه ثلاث درجات :

أ- نفس فى استتار ، معلق بالعلم وهى تتولد عنده من وحشة الاستتار ؛

---

(١) منازل السائرين ص ص (٨٦ ، ٨٧) وشرح منازل السائرين ص ص (١٨١ / ١٨٢) .

وهى الظلمة التى قالوا إنها مقـام . وهـذه النفـس متعلقـة بـالعلم الصحيح، وهى نفس كشفت بعد استتار ، فيعرف صاحبها نعمة خالقـه عليه ، وصاحب هذه النفس أنفاسه أنفاس حزن وأسف وهلاك وتلـف لما حجب عنه من لذيذ المقام وجميل المرام . وهـو باعتبـار الحـال والستر ظلمة ، وباعتبار المآل . وما يترتب عليه فى الاستقبال مقـام محمود .

ب- وهى نفسٌ فى حين التجلى ، وهى نفس شاخص عن مقام السرور إلـى روح أم المعاينة ، مملوء من نور الوجود شاخص إلى مُنْقطع الإشارة. وهى أبلغ مما قبلها . حيث إن الأولى فى حالة استتار وظلمـة إلا أن الثانية فى حالة تجل ونور . وهى نفس دائمة التعلق بالله رغبـة فـى الانتقال من حالة التحلى التى تكون من وراء ستر رقيـق إلـى حالـة الكشف والمعاينة من غير ستر ، ولذلك فإن صاحبها يكـون شـاخصاً يقلق إلى المعاينة .

جـ-نفسٌ مطهر بماء القدس ، قائم بإشارات الأزل ، وهو النفـس الـذى يسمى صدف النور . وهى أفضل وأتم مما قبلها . حيـث إن النفـس الأولى سراج ، والثانية للقاصد معراج ، والثالث للمحقق تاج . وهـو نَفَسٌ مستغرق بنور الحق تنطق عليه ولذلك فهو متعلق به وملازم له.

إن العرض السـابق لمفهـوم النفس ودرجاتهـا من وجهـة نظـر (أبى إسماعيل) تشير إلى تصنيفها من حيث المنزلة والمقام ، ومكانتـها عنـد الخالق . كما أنها تشير إلى رغبات النفس المسلمة فى نيـل رضـا خالقها والفوز بمكانة ما عند ربها . حيث يبين أن منـها المتعلـق بـالعلم

الصحيح فكشفت بعد استتار نعم الله عليها ، ومنها ما هو متعلق بالرغبة في المعاينة أى معاينة نور الله ، منتظرة للإنتقال من حالة التجلى التى تكون من وراء ستر رقيق إلى حالة الكشف والمعاينة من غير ستر ، ومنها ما هو مستغرق بنور الحق وآثاره ولذلك فهو متعلق بها وملازم لها. وهذا يعد فى مجال الدراسات النفسية الإسلامية تصنيف جديد للنفس على خلاف ما ورد من قبل فى كتب التراث الاسلامى من تصنيفها على أساس ما يصدر عنها من سلوك، وهى النفس الأمارة ، والنفس اللوامة ، والنفس المطمئنة. وفى هذا أشارة جديدة إلى تنبيه المسلمين إلى ما ينبغى أن تهدف إليه النفس فى حياتها الدنيا ، وهو تحقيق منزلة لها عند خالقها، وأن ذلك لا يمكن أن يتم بدون الأعمال والأفعال والأحوال الصالحة فى حياة الإنسان ، تلك التى تفيد صاحبها بالوصول إلى ما تتطلع إليه من المكانة والمنزلة عند الله ، وفى الوقت نفسه تفيده فى أن يحيا حياة دنيوية صحيحة نقية طاهرة . كما أنها تفيد المجتمع الإنسانى بفعلها وحركتها الداعية المستمرة لفعل الخير إستجابة لإوامر الله وانتهاء بنواهيه فينعم المجتمع بكل ما يقدم الفرد من أعمال وأفعال وأقوال وأحوال .

<u>الإرادة</u> : ويشير " أبو اسماعيل " إلى أن الإرادة هى "[١] الإجابة لدواعى الحقيقة طوعاً " ويقصد بالإرادة بناء على ذلك " ما يطرق قلب الإنسان من الخواطر الداعية إلى العزوم والأفعال " . على أساس من

---

(١) منازل السائرين ص (٥٢) وشرح منازل السائرين ص ص (١٠٩ / ١١٢)

استكمال الإنسان لمعارفه عن مولاه . ومن هنا يبادر إلى داعى الحق من غير كسل أو اعتلال . ولذلك تعتبر أساس سائر الأعمال . وتأتى الإرادة على ثلاث درجات :

أ- .ذهاب عن العادات بصحة العلم، وتعلق بأنفاس السالكين مع صدق القصد .وهذا المستوى من الإرادة يدعو صاحبه إلى ملازمة نفسه بالعلم وإلى قطع عوائده الدنيوية ، بشرط أن يرفق بنفسه ؛ فلا ينقلها دفعة ؛ فتنفرد وتشرد ، أو يتركها على ما كانت عليه فتبرد وتخمد ، أو يراوضها فى نقلها عن عوائدها بغير الوجوه الجائزة شرعاً فيفوتها خير الدارين وتفسد . ويمكن أن يتم ذلك إذا صدق الإنسان فى مقصده.

ب- تقطعٌ بصحبة الحال ، وترويح الأنس والسير بين القبض والبسط. وهى أرفع مما سبقها حيث تدعو الإرادة الأولى إلى إجابة الداعى للخروج عن العوائد والمشغلات. إلا أن هذا المستوى الثانى يعبر عن إرادة أعلى إجابة لداعى الأحوال ، وتحمل ما يبدو منها فى القلوب والأبدان من الآلام بترقب الزيادات، وترويح القلوب بمواهب علام الغيوب .

جـ-ذهول مع صحبة الاستقامة ، وملازمته الرعاية على تهذيب الأدب . وهى درجة من الإرادة أتم مما قبلها . حيث تشير الإرادة (ب) إلى ضرورة الوقوف مع الحال ، وتحمل لما يبدو من الآلام ليحصل بذلك على الإحساس بالأنس . أما هذه الإرادة الأخيرة (جـ) وهى إرادة الانشغال بالحق سبحانه وتعالى ، وذلك بالسلوك المستقيم الذى يتأتى بالتهذيب والأدب واستمرارية رعاية النفس .

ومما تقدم يبدو واضحاً مفهوم الإرادة ودرجاتها عند " أبى اسماعيل " حيث يرى أنها قدرة الإنسان على الإجابة للدواعى دون ضغط من الآخرين كما يرى أنها تأتى على ثلاث درجات ؛ الأولى أساس إرادة الإنسان من التخلص من العادات الدنيوية على أساس من العلم والمعرفة وبالأساليب الصحيحة السليمة التى تؤدى إلى ارتفاع مستوى الإرادة لدى الإنسان لتصل إلى المستوى الثانى الذى يدعو صاحبه إلى تحمل الآلام فى سبيل الوصول إلى نسيم الأنس بالله . وأن الثالثة هى أعلى مستوى من الإرادة ، وبها يصل الإنسان إلى الانشغال بالله على أساس من السلوك المستقيم . ولكن هذه الدرجات الإرادية مستمدة من مدى قدرة الإنسان على استكمال كافة المعارف عن خالقه ومولاه . بحيث إنه إذا ما استطاع إدراك ذلك ، قويت إرادته للإستجابة لأوامر الله دون تراخ أو كسل . ولذلك اعتبرها أبو اسماعيل أساس لكل ما يصدر عن الإنسان من سلوك كانت أقوالاً أو أعمالاً.

كما يبدو - أيضاً - أنها ذات ارتباط وثيق بعلاقة الإنسان مع خالقه . حيث صنف درجاتها على أساس رغبة الإنسان فى معرفة المزيد من العلم بالله ، وانه كلما كان الإنسان المسلم عارفاً بمولاه قويت إرادته ودفعته للإقبال على الله ، وممارسة الأعمال التى تقربه إليه .

الغيرة [١]: ويقصد بها "سقوط الاحتمال ظناً ، والضيق عن الصبر

---

(١) منازل السائرين ص ص (٧٢ : ٧٣) وشرح منازل السائرين ص ص (١٥٤ / ١٥٦).

نفاسه " ويبنى هذا المفهوم أن الغيرة فى الإسلام تكون فى الخير المغار عليه، كغيرة سليمان عليه السلام على وقته الذى شغل فيه عن ذكر ربه . كما أنها غيرة على حرم الفواحش ، فالمؤمن يغار ، والحق يغار ومن غيرته حرم الفواحش . أى أن الغيرة هى إبعاد الإنسان ما يكره والإعراض عنه . وأن ضيق صدر الإنسان عن الصبر ليس جزعاً ، إنما يعنى ضيق عن الصبر من أجل المنافسة فى الخير المغار عليه . ويرى أنها على ثلاث درجات :

أ- غيرة العابد على ضائع يسترد ضياعه ، ويستدرك فواته ، ويتدارك هلاكه ، أى أن العابد تكون غيرته على وقت ضائع فيما لا يفيد ، وذلك بدعوه إلى استرداده ما ضاع منه من الوقت بدوام الأعمال بالذكر والابتهال ، وأن يتدارك هلاكه بملازمته الرعاية له خوفاً من الاختلال.

ب- غيرة المريد على وقت فات ، وهى غيرة قاتلة فإن فات الوقت إشتد الغضب على فواته وهى أشد مما قبلها ، حيث إنه يخشى فوات الوقت دون تحقيق مقصده فيه ، لأن كل وقت يمضى عليه وهو فى غفلة عن مقصده فيه هلاكه ، ولذلك عبر عنها بأنها " غيرة قاتلة " ذلك لأن الوقت سريع المضى ، وإذا طلب رجوعه لن يحدث ذلك ، وإن حدث لن يقدر على تعويضه ما فات منه .

جـ-غيرة العارف على عين غطاها غينٌ ، وسرَ غشية رينٌ ، ونَفَس علق برجاء ، أو التفت إلى عطاء . وهى درجة أعلى وأبلغ مما قبلها ، حيث إن غيرة السالك العابد على ضياع أحواله وأوقاته فى غير

السلوك الحميد . وغيرة العارف على وجود حاصل يخشى عليه الرجوع أو الفوات . ذلك لأن الأخيرة متعلقة بالمولى عز وجل التى يكون فيها العابد عيناً انفتحت لنظر الحق غطاهما غفلة ، وسر بينه وبين مولاه ستره عنه هواه .

ومن يدقق النظر فيما عرضه " أبو اسماعيل " عن مفهوم الغيرة ، ودرجاتها . يبدو واضحاً أنها ليست كمفهومها عند أصحاب التحليل النفسى. حيث يركز " أبو اسماعيل " على أن الإنسان ينبغى أن يغار من أجل الخير ، والمحبة ، والنفع ، وأن تكون هذه الغيرة لله وفى الله . وهذا هو المنطلق الإسلامى لمفهوم الغيرة . حيث لا يغار إلا من أجل منافع العباد وتثبيت الإيمان فى نفوسهم بإبعادهم عن فعل الفواحش ما ظهر منها وبطن، وكذلك الغيرة على الوقت الضائع الذى لا يستفاد منه فى الأعمال والأحوال ، وكل ما من شانه أن يقرب العبد إلى خالقه . وبناء على ذلك تصبح الغيرة مصدر خير للإنسان الفرد وللمجتمع على حد سواء وهذا على خلاف مفهوم الغيرة(١) عند التحليل النفسى - كما سبق القول - ذلك لأنها عندهم تعنى كرهاً ، وحقداً ، وحسداً ، وبذلك تصبح مهلكه لحياة كل من الفرد والمجتمع ، بل يبلغ أثرها فى الحياة الدنيا إلى حد تدمير كل شئ، وفى الآخرة الخسران المبين . أى أن الإنسان لا يجنى منها سوى الخراب فى الدنيا والخسران فى الآخرة .

---

(١) الصحة النفسية للطفل ص ص (١٢٣ / ١٣٤)

القلق : ويقصد به[١] " تحريـــك الشـــوق بإســـقاط الصبـــر " وهـــو نتاج الشوق مع قلة الصبر ، وخاصة إذا اشـــتد الشـــوق . وهـــذا يعنـــى ان القلق سمة أساسية من سـمات الإنســـان ، وهـــو يصـــاب بـــها مـــن حينٍ إلى آخر تبعاً لأحواله؛ فإن كـــان فـــى انتظـــار محبـــوب ولـــم يصـــل فإنه فى هذه الحالة يصاب بدرجـــة مـــن درجـــات القلـــق وتـــزداد حدتـــه بزيادة درجة المحبة مع قلة الصـــبر عنـــده .

ويرى انه على ثلاث درجات :

أ- قلق يضيق الخُلق ، ويبغض الخلق ، ويلذذ المـــوت . وهـــذه الدرجـــة يفوت معها الصبر لسيطرته على القلب ، وعندما يكون الإنسان علـــى درجة من الشوق ، أصيب بضيق الخلق نتيجة لعدم قدرته على الوصل إلى محبوبة . وهو بناء على هذه الحالة يبغض ويكره كل من يشـــغله عن مراده وطلبه وقد يصل به الحد إلى تمنى الموت لنيل مراده .

ب- قلق يغالب العقل ، ويخلى السمع ويصاول الطاقة . ويوجد تفاوتاً بيـــن هذه الدرجة من القلق وبين سابقتها . حيث إن القلق الأول نتيجة لعـدم تواجد الصبر مع زيادة درجة الشوق ، أما هذه فهـــى نتـــاج انشـــغال عقله عن ذكر غيره فلم يعد يسمع .

جـــ-قلق لا يرحم أبداً ، ولا يقبل أبداً ،ولا يبقى أحداً . وهـــو قلـــق نتـــاج وصول الإنسان إلى درجة خاصة من التقريب ، التى بها يكشف مـــا لا

---

(٢) منازل انسائرين ص ص (٧٤ / ٧٥) وشرح منازل الســـائرين ص ص (١٥٨ / ١٥٩)

نهاية له من أنواع المعارف والتأديب . ولا يقبل أمداً لانتفاء النهاية عن الإمكان فيما يطلعه عليه " القريب المجيب " وبذلك فان قلقه هذا لا يجعله يذكر أحداً .

إن الواعى لما تقدم من بيان لمفهوم القلق من وجهة نظر الإسلام، والتى طرحها " أبو اسماعيل " يدرك تمام الإدراك أن القلق سمة من سمات الإنسان إلا أنه ينبغى أن يكون القلق ليس من أجل تحقيق أهداف دنيوية فقط وآمال بشرية ، أو أغراض فانية . إنما ينبغى أن يكون قلق الإنسان من أجل هدف أسمى وأكبر مما تقدم ، وهو القلق من أجل حقيقة علاقة الإنسان بخالقه والمنعم عليه . حيث إن كل ما يتمناه الإنسان المسلم هو رضى الله عنه ، وتقبل أعماله وأفعاله التى ينبغى أن تكون جميعاً ابتغاء مرضاة الله . وليست ابتغاء تحقيق أغراض أو حاجات دنيوية زائلة . وأن يكون القلق من أجل استشعار مزيد من حب الله للإنسان ، ومن رضا الله على الإنسان ، ومن هنا يصبح العمل الذى يقدمه الإنسان خالصاً لله، وكل ما كان لله كان ثمره أنضج وأنفع وأثره وأبقى . فتصبح حياة الإنسان حياة مليئة بالأعمال الخيرة التى ينشد بها وجه الله سواء كانت هذه الأعمال ؛ تعبدية بحتة أو دنيوية فى ظاهرها إلا أنها تعبدية فى دافعها . ومن هنا يكون لها الأثر العظيم الباقى فى حياة الإنسان الفرد ، وحياة الجماعة ، والثواب الأكبر فى الحياة الآخرة .

الثقة : كما تناول " أبو اسماعيل " بالحديث عامل الثقة التى اعتبرها"[١] سويداء عين التوكل ، ونقطة دائرة التفويض ، وسويداء قلب التسليم ، وهى بذلك أساس من الأسس التى يعتمد عليها المتوكل . حيث لا يتوكل الإنسان العبد على الله سبحانه وتعالى يفوض أمره إليه إلا إذا وثق بالله سبحانه وتعالى أقتداراً وعلماً وإحساناً . ولذلك وصفها " أبو اسماعيل " بأنها سويداء عين التوكل ومركز التفويض ، وسويداء قلب التسليم أى لبه. ويرى أنها على ثلاث درجات :

أ- درجة الإياس ، وهو إياس العبد من مقاومة الأحكام ليقعد عن منازعة الأقسام ، وليتخلص من قحة الإقدام . حيث إنه أول ما تكون عنده الثقة قطع اليأس من النفس ، فتسكن بذلك حينئذ للقادر على نفعها وضرها . وبذلك تقعد النفس عن منازعتها عند اختلاف الأرزاق . وعندئذ يتخلص الإنسان من قحة الإقدام ؛ أى على الإعتراض على المقدور من غير أدب ولا احترام .

ب-درجة الأمن : وهو أمن العبد من فوات المقدور ، وانتقاص المسطور؛ فيظفر بروح الرضا . وهى أتم مما قبلها . حيث إن ما قبلها كان على يأس النفس من الاقتدار والوثوق فى قدرة الله العزيز الجبار . أما الثانية فهى ثقة بأن ارادة الله تكون ، ولابد من حدوثها ، وبذلك تأمن النفس ، ولا تبالى بفوات ما تحقق لانه لابد من أن يتحقق أو يحدث . حيث يكون الصبر على ثقة من أنه لا يتبدل ما ثبت فى اللوح المحفوظ

---

(١) منازل السائرين ص ص (٣٥ / ٣٦) وشرح منازل السائرين ص ص (٧٣ / ٧٥) .

من مسطور . وعندئذ يشعر بالرضا وينعم بالحلو والمر من القضاء ذلك ليقينه بأنه اختيار مولاه .

جـ-معاينة أولية الحقّ ليتخلص من محن القصود ، وتكاليف الحمايات ، والتصريح على مدارج الوسائل . وهى أفضل وأعلى مما قبلها . حيث تشير إلى أن ثقة (ب) سكون لمن أمن من فوات القسم المسطور المقدر . أما هذه فإنها سكون بناء على الثقة فيها إلى ما سبق من اللطف بالعبد . حيث اليقين بأن المقدر مكتوب لا مفر منه ولا هروب ، وذلك يتحقق بفضل الإيمان أولاً . وبذلك يدفع العبد هذه المقدرات بأيسر الأمور فتستريح نفسه .

الرضا :وهو[1] اسم للوقوف الصادق حيثما وقف العبد ، لا يلتمس متقدماً ولا متأخراً ، ولا يستزيد مزيداً ، ولا يستبدل حالاً . إنه من المعلوم أن الإنسان مأمور بطلب المزيد من فضل الله ، والتنقل فى درجات التقرب إليه ، ولذلك فهو يهرب من مناطق النقص ، ويسأل الله فى استبدال الأحوال هذا فيما يطلب الإنسان فى دنياه أو ما يحل به من نوازل . كما أن الرضا يتحقق بعد نزول القضاء ، أما ما قبله فهو عبارة عن عزم على الرضا . حيث يكون العبد فى كلا الحالتين راضٍ لحسن اختيار الله سبحانه وتعالى . ويرى " أبو اسماعيل " أنه على ثلاث درجات :

أ-رضا العامة : وهو الرضا بالله رباً ؛ بسخط عبادة ما دونه ، وهذا قطب

---

(١) منازل السائرين ص ص (٣٩ / ٤١) وشرح منازل السائرين ص ص (٨١ / ٨٤)

رحى الإسلام ، وهو يطهر من الشرك الأكبر . وفى هذه الحالة يكـــون الله سبحانه وتعالى الأحب لدى العبـــد ، وأولـــى بـــالتعظيم ، وأحـــق بالطاعة. حيث لا منعم سواه ، ولا ثان له فى سلطانه ولا صفاتـــه ولا ملكوته ، وكذلك يكون أحق بالطاعة إذ لا رب عنده سواه .

ب-الرضا عن الله ، وهو الرضا عنه فى كل ما قضـــى ، وذلـــك يمكـــن ان يحدث ويتم باستواء الحالات عند العبد ، وســـقوط الخصومـــة مـــع الخلق ، وبالخلاص من المسألة والإلحاح . وهى أرفع مما قبلـــها لأن الأولى واجبة والثانية مندوبة ما لم يضعف حاله ، فيفوتـــه الصـــبر ، فيقع فى التسخط وبذلك يخرج من الرضا . ولذلك لابـــد أن تســـتوى عنده الحالات، لأنها من عند ربه ؛ لا من حيث طبعه وميل نفسه .

جـ-الرضا برضى الله ، فلا يرى العبد لنفسه سخطاً ولا رضا فيبعثه علـــى ترك التحكم وحسم الاختيار ، وإسقاط التمييز ، ولو أدخل النار . وهـــى أرقى مما قبلها ، ذلك لأن رضا العبد متعلق بما وقع من الأفعال ولـــهذا يتعلق رضاه بصفه من صفاته تعالى ، من حيث إنه تعالت قدرته ، هـــو المختار المريد أجراه عليه ، موافقاً له كان أو مخالفاً لهواه . معرضـــاً عن سخط نفسه ورضاها . مقبلاً على محبة ما اجراه عليها خالقـــها . ومن هذا يفهم أن مفهوم الرضا من وجهة نظر الإسلام كما يطرحـــها " أبو اسماعيل " أعمق بكثير من مفهوم الرضا الـــذى تواضـــع عليـــه المتخصصون فى علم النفس ، ذلك لأنه رضـــا منبثـــق عـــن الديـــن الإسلامى ، ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع علاقة العبد بخالقه وقد يظـــن بعض الناس إنه لا علاقة بين مفهوم الرضا فى الإسلام وبين المفـــهوم

المتعارف عليه فى علم النفس . حيث إن الأمل مرتبط بمجال علاقة الإنسان بالخالق والثانى مرتبط بعلاقة الإنسان بواقعه وحياته . ولذا يعتبر مفهوم الرضا الإسلامى أعمق بكثير من تلك النظرة السطحية : ذلك لان الإنسان إذا تحقق له الرضا من المنطلق الإسلامى[١] - الرضا مع خالقه - الرضا بالله ، والرضا عن الله ، والرضا برضى الله فإن ذلك بلا شك ينعكس على نفسية العبد التى ينالها الهدوء والاستقرار النفسى الذى يبدو واضحاً فى كل ما يصدر عنه من تصرفات وأفعال وأقوال ، وفى كل حالاته ؛ خيرها وشرها ذلك لرضاه بما قضى الله وما قدم . وهذا بدوره يترك أثراً كبيراً فى معاملاته مع غيره من الناس ؛ فتصبح العلاقات طيبة وجيدة . مما يحدث جواً نفسياً مريحاً فى البيئة الإنسانية .

الاغتراب : ويعرفه "أبو اسماعيل " بأنه اسم يشار به[٢] إلى الانفراد عن الأكفاء " ويعنى هذا أن الاغتراب حالة من حالات الانفراد عن الأكفاء والأمثال ، وتارة يكون هذا الانفراد بالجسم ، وتارة أخرى يكون بالانفراد عنهم بصفاته وأحواله . حيث يكون الهدف منها التفرغ للمقصود، لسلامته من معارضة أضداده . ويرى إنها على ثلاث درجات .

أ- الغربة عن الأوطان ، وهذا الغريب موته شهادة ويقاس له فى قبره من متوفاه إلى وطنه . ويجمع يوم القيامة إلى عيسى بن مريم عليه

---

(١) من أسس الصحة النفسية فى الإسلام . ص ص (١٢٣ / ١٣١)

(٢) منازل السائرين ص ص (٨٧ / ٨٨) وشرح منازل السائرين ص ص (٨٣ / ١٨٤)

السلام . وهذه أولى درجات الغربة وينال صاحبها الشهادة ، وتكون له مكانة محمودة عند الله سبحانه وتعالى .

ب- غربة الحال وهذا من الغرباء الذين يتصفون بالصلاح فى زمان فاسد . بين قوم فاسدين ، أو عالم بين قوم جاهلين او صديق بين قوم منافقين . وهذه الغربة لا تكون اختيارياً بل تحدثها الضرورة والحاجة إلى ذلك . ويكون فيها الإنسان مخالطاً لغيره من الناس شكلاً وظاهراً، وخاصة إذا كان الشرع يتطلب منه أن يخالط من هذه صفته ، لتعليم علم أو حكم بينهم وفصل ، أو حاجة ضرورية لمأكل ومشرب ، وما لابد له منه من مخالطتهم . وماعدا ذلك لا يكون الصادق بينهم فى الغربة إلا قهراً وجبراً .

جـ- غربة الهمة ، وهى غربة طلب الحق ، وغربة العارف لان العارف فى شاهده غريب ، وموجود فيما يحمله علم أو يظهره وجد ، أو يقوم به رسم أو تطيقه إشارة أو يشمله أسم غريب. وهذه تعتبر غربة الغربة، وهى غربة أتم مما قبلها . حيث إن الأولى إما غربة بالأفعال أو بالأحوال . وهذه غربة بالهمم ، وأن صاحبها غريب فى الدنيا ، وغريب فى أبناء الآخرة الموقوفين مع رؤية الأعمال أو الأحوال ، فهو فى الدنيا غريب بين أبنائها بأفعاله أو أحواله ، وهو فى الآخرة غريب بين أبنائها لانفراده بحالة وشاهده . وهى منزلة ومكانة مرموقة بين المنازل الثلاث .

ويتناول " أبو اسماعيل " الاغتراب من وجهة نظره على أساس من

الفهم الإسلامى ، وكما يجب أن يكون الاغتراب ، والنتائج المترتبة على هذا النوع من الاغتراب . حيث يشير إلى مفهوم الاغتراب ، وإلى درجاته ، التى اعتبرها أنواعه . حيث يذكر أنه الإنفراد بالجسم أو بالنفس عن الآخرين . وأنه الاغتراب عن الوطن ، أو الاغتراب عن حال الناس وافعالهم ، ثم غربة الغربة حيث يتميز صاحبها بأنه يكون غريباً بين أبناء الدنيا بأفعاله وأحواله وغريب بين ابناء الآخرة بتفرده بأعماله وأفعاله وأحواله عن غيره من عباد الله . ويؤكد " أبو اسماعيل " على ما يترتب على هذه الدرجات من الغربة وعلى نتائجها التى تدعو الإنسان إلى ضرورة المحافظة عليها لما لها من آثار طيبة فى حياة الإنسان ، فلا يناله فساد الفاسدين ، ولا يتأثر بجرم المجرين . وفى الحياة الآخرة ينعم بالمكانة المرموقة عند الله سبحانه وتعالى ، وهذا المفهوم وإن كان يتفق فى معناه مع المفهوم السائد والمنتشر عن الاغتراب ؛ وهو الانفراد والعزلة . إلا أن تصنيفه يختلف تمام الاختلاف عن أنواع التصنيفات التى وضعها المتخصصون فى علم النفس والفلسفة حيث يصنفها " أبوإسماعيل " على أساس علاقة الإنسان بخالقه ، ومدى إلتزامه بأوامر دينه ونواهيه . بينما تصنيف علماء النفس لنوعية الاغتراب مبنى على أساس أثر العوامل النفسية والاجتماعية والبيئية على الإنسان .

<u>الفراسة</u> : ويقصد به[١] " استئناس حكم غيب من غير استدلال بشاهد ، ولا اختيار بتجربة " وهذا يعنى أن الإنسان المؤمن الحق يهبه الله

---

[١] منازل السائرين ص ص (٦٤ / ٦٥) وشرح منازل السائرين ص ص (١٣٤ / ١٣٦)

سبحانه وتعالى نوراً فى قلبه ، يكشف به ما لم يُكشف لغيره ، بغير قياس على شىء ، ولا تجربة بأمثاله . وذلك بخاطر صحيح يمنحه إياه لا يكذب أو يخطئ ، أو بنور كاشف لا يخطئ .

هذا ؛ وقد بين أنها تكون على ثلاث درجات :

أ- طارئة نادرة ؛ وهى تحدث على لسان وحشى فى العمر مرةً ، لحاجة مريد صادق إليها ، لا يوقف على مخرجها ، ولا يؤدى بصاحبها ، وهى تدل على حق وصدق وإن كانت نادرة .

ب- وفراسة تجنى من غرس الايمان ، وتطلع من صحة الحال ، وهى تلك الفراسة التى أصلها الثابت الإيمان ، ولذلك تظهر آثارها عند صحة الحال .

جـ-فراسة سرية لم تجتلبها روية على لسان مصطنع تصريحاً أو رمزاً . وهى فراسة غير مكتسبة ذلك لان أدنى درجات الكسب؛ الرؤية والنظر فى الشىء قبل النطق به لمعرفة صحته ، وذلك بميزان العلم الصحيح. أو بما تشير إليه الأحوال المفهومة بالإشارات والتلويح. إلا أن هذه الفراسة موهبه يمنحها الله سبحانه وتعالى قلوب المصطنعين من خواصه وعلى ألسنتهم قهراً وجبراً ، رحمة للخلق وعوناً لهم ، وتقوية فى أحوالهم ، وتمكيناً فى مقاماتهم .

ومما تقدم يتضح تحديد " أبى اسماعيل " لمفهوم الفراسة أو التوسم كما أطلق عليها ؛ وهو قدرة الإنسان على إصدار الأحكام دون توافر الحيثيات أو الأسباب التى تمكنه من الحكم ، وأن هذه الأحكام - غالباً ما

تكون - صادقة ومؤيدة للواقع الذى يحدث بعد ذلك . إلا أنــه يرجـع هـذه القدرة إلى ما يمنحه الله سبحانه وتعالى للإنسان المؤمن من نور فى قلبـه يمكنه من كشف ما لم يكشف لغيره دون الاعتماد على القياس أو التجربـة إنما على أساس خاطر صحيح يمنحه الله إياه . ويرى أن هذا لا يتـأتى إلا للعباد الذين على درجة عالية من الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، ويذكر أنـها قد تأتى على لسان الإنسان فى العمر مرة . وقد تأتى مـن الإنسـان عنـد توافر صحة حاله التى تنبىء عن ثبات وعلو درجة إيمانه . وأخرى تـأتى هبة من الله فى قلوب الخواص من عبادة تمكيناً لـهم وتثبيتـاً لأحوالـهم الإيمانية ذات المكانة الرفيعة والدرجة العالية . هذا علـى خـلاف تفسـير المتخصصين فى علم النفس لمن لديهم هذه القدرة . حيث يرون أنها تـأتى على أساس ما لدى الإنسان من قدرات عقلية عالية ، وإمكانيات ابتكاريـة غير متوفرة لدى كثير من البشر .

الانبسـاط : ويقصـد بـه " أبـو اسـماعيل "[١] إرسـال السـجية والتحاشى من وحشة الحشمة ، وهو السير مـع الجبلـة ، وهـذا يعنـى تـرك الاحـترام ، وطـرح الاحتشـام ، كمـا يسـتعمله العـوام . أى أن الإنسان المنبسط هو ذلك الشـخص الـذى يتكلـم أو يتحـدث أو يسـلك بعيداً عن الحشمة التـى يستشـعرها بقلبـه . أى قـد يخـاطب الإنسـان إنساناً آخر فى شكل الاحترام والاحتشام والتعظيـم والتقديـر وليـس فـى قلبه قبض يمنعه من الكـلام .

---

(١) منــازل السـائرين ص ص (٤٨ / ٤٩) وشـرح منازل السائرين ص ص (١٠٢ / ١٠٥)

ويرى أنه على ثلاث درجات :

أ- الانبساط مع الخلق ؛ وهو أن لا تعتزلهم ضناً على نفسك ، أو شحاً على حظك ، وتسترسل لهم في فضلك ، وتسعهم بخلقك ، وتدعهم يطؤونك ، والعلم قائم ، وشهودك المعنى دائم . وهذه هى حقيقة الإنبساط مع الخلق . وهذا لا يعنى أن يكون اعتزال الإنسان للناس بخلاً بنفسه عليهم ، وشحاً على حظه منهم ، إنما قد يجوز أن يعتزلهم لغير هذا المعنى ، وذلك بقصد تصفية حاله مع مولاه ، أو خوفاً من ضرر يدخل عليه من اجتماعه بهم أو لُقياهم ، أنما الإنسان القوى فى نفسه والمتمكن من ذاته ، فإن بسطه معهم يزيده قوة على قوته . بشرط أن يكون الإنسان حال البسط مع الناس غير متعد للحدود، غير غافل عن المعبود.

ب-الانبساط مع الحق . وهو ألا يجنبك خوف ، ولا يحجبك رجاء ، ولا يحول بينك وبينه آدم وحواء . وهى درجة أتم مما قبلها . حيث إن الأولى بسط مع العباد فى الله فيما يبدو من الإنسان من تعامل وسلوك. أما الثانية فهى بسط مع الله ؛ فلا يحيد بك، ولا يقطعك عنه سبحانه وتعالى خوف ولا رجاء . وهذا لا يعنى أن العبد لا يخاف ولا يرجو، بل إن القلب الذى يفارقهما يصاب بالتلف ؛ انما يعنى أنهما متساويان فى أعلى درجاتهما وهى الهيبة والتعظيم والمحبة . حيث إن كل ذى درجة عالية خائف من مكروه ، وراج لدوام إحسانه إليه وفضله ، ولكن لا يقطعه خوفه من الانبساط مع الله سبحانه لما يجده من الشعور

بالمحبة والإقبـــال .

جـ-الانبساط فى الانطواء عن الانبســـاط ، وهــذا يعنــى رحــب الهمــة لانطواء بسط العبد فى بسط الحق جــل جلالـــه . وهــى أعلــى ممــا قبلها . حيث إنـــها متعلقـــة ببســطة همــة العبــد المتعلقـــة ببســط مولاها ، لما غلب عليه من سعة فضلـــه إليـــها .

ومن ينظر فى تحديــد مفــهوم الانبســاط عنــد " أبــى اســماعيل " يجد أنه يشير إلـــى ذلــك الشــخص الــذى يكــون علــى ســجيته ، دون ضوابط مدنية تحول بينـــه وبيــن مخاطبــة النــاس مســتخدماً أســاليب التخاطب التى ترد على لسانه ، وليـــس فـــى قلبــه مايشــعره بالامتنـــاع عن الكلام . كما يشير فـــى تحديــده لدرجاتـــها إلـــى مســتويات تنــدرج تحتها :

المســتوى الأول : الانبســاط مــع الخلــق والــذى يعنــى عــدم اعتزالهم ، والتعاون معهم ، ومســـاعدتهم وإنمـــا يقصــد اعتزالـــهم فـــى حالة واحدة وهى عندما يريد أن يحاسب نفســـه قبــل أن يحاســبه ربــه. وأنه إذا ما انبسط مع الناس يجــب ألا يتعــدى حــدوده وأن يراعـــى الله حال تعامله معهم ، فإنه بذلك تزداد قوة فى شــخصيته علــى قوتـــها .

المستوى الثانى : الانبساط مــع الحــق تبــارك وتعــالى . وهــو أن يظل الإنسان مع الله ، وألا يحــول بيــن الإنســان وخالقــه الانشــغال بالناس ، وأن يظل علــى خــوف ورجــاء . بمعنـــى أن يكــون الإنســان على درجة الهيبة والتعظيم والمحبــة لخالقــه .

المستوى الثالث : الانبساط فى الانطواء عن الانبساط .
وهذا يعنى ان يظل الدافع فى انبساط الإنسان مع الله دون توقف أو انطواء .

- ومن هذا يبدو واضحاً مفهوم الانبساط على أساس من الثقافة الاسلامية الدينية الذى يظهر فيما يصدر عن الإنسان من سلوك اثناء تعامله مع غيره من الناس . حيث يصبح الإنسان المسلم على درجة من الإدراك والانتباه لمراقبة مولاه فى مختلف أقواله واعماله وحالاته .

الانفعالات

ويتناول " أبو اسماعيل " فى كتابة "منازل السائرين " جانباً هاماً وأساسياً من جوانب الشخصية الإنسانية وهو الجانب الإنفعالى , فيذكر بإيجاز شديد عدداً من أنواع الانفعالات التى تنتاب الإنسان فى حياته ، وتسهم بدرجة كبيرة فى مدى علاقته بخالقه سبحانه وتعالى ، وما يترتب على ذلك من تحقيق قدر من الصحة النفسية والسواء النفسى فى الدنيا ، والنعيم فى الأخرة ومنها :-

أولا:الخوف الذى يحدده بقوله: [١] "الانخلاع عن طمأنينة الأمن بمطالعة الخبر" وهو فى هذا يشير الى تلك الحالة الانفعالية التى تصيب الإنسان وتخرجه من حاله الإحساس بالطمأنينة عندما يصل اليه خبر مفزع يصيب القلب بالاضطراب والقلق- " الانزعاج " وعدم أمنه وطمأنينته. وقد عبر "أبواسماعيل" عن الخوف بزوال ضده وهو "إنخلاع الطمأنينة من القلب" ثم نجده بعد ذلك يحدد عدداً من مستويات الخوف فيعرض.

أ-الخوف من العقوبة ، وهو خوف يصح به الايمان.وهذا النوع من الخوف هو خوف العامة .وهو يتولد من تصديق الوعيد وذكر الجنابة، ومراقبة العاقبة. فإن ذلك من شأنه أن يحدث الخوف فى النفس والقلب.

ب-خوف المكر، وهو إحساس ينتاب الإنسان أوقات المناجاة ، وهو درجة أرفع من الدرجة السابقة ، وتكون من المتقى المستقيم اليقظ ،

---

(١) منازل السائرين ص (٢٠) وشرح منازل السائرين ص ص (٤١/٤٣) .

صاحب الأعمال الطيبة الحسنة وهذا النوع يحدث من بعض النـــاس الذيــن يشعرون بعظمة وهيبه الخالق.

جـ- خوف هيبة الجلال. وهذا النوع من الخـــوف أقصـــى درجـــات الخوْف، وهو عبارة عن حالة إنفعالية تنتاب المناجى وتحـــدث فـــى نفســـه شعوراً بالهيبة تحدث فى أوقات المناجاة.

والخوف كأحد الانفعالات التى تنتاب الإنسان يتحدث عنها كثير مـــن الباحثين فى علم النفس ، كما أنهم قد تناولوه بالبحث والدراسة .الا أنه هنا مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالواقع الدينى للإنسان المسلم.

ثانيا:الإشفاق. الذى يقصد به[١] "استشعار إحساس الحذر مقرونـــا بالترحم" وهو حالة انفعالية يشعر بها الإنسان ، وتدعـــوه إلـــى ضـــرورة استخدام الحذر والترحم . ويرى أنها على ثلاثة انواع:-

أ- إشفاق على النفس ، وذلك بسبب فساد أخلاقها وأفعالها عـــن طريـــق عناد خالقها فيما يختاره ويقضيه لها.

ب- إشفاق على العمل، وذلك بسبب اختلال شـــروط صحتـــه أو الدخـــول اثنائه لافساده.

ج- إشفاق على الوقت ، وذلك بسبب عارض أو حدوث ظروف تحول بيـــن حضور العبد مع ربه, أو الذكر الدائم. أو حـــدوث تشـــويش يشـــغله، فتزهو النفس ، وتنال العُجب . وهذا الإشفاق يجعل الإنسان يكف عـــن

---

(١) منازل السائرين ص (٢١) وشرح منازل السائرين ص ص (٤٣ / ٤٥)

مخاصمة الخلق وحسن التعامل معهم. وهذا المتغــير يعتــبر إضافــة جديدة لمختلف المتغيرات الانفعاليه المعروفة التـــي تناولــها علمــاء النفس بالتحديد والدراسة والبحث . حيث لم يتعرض لها أحد منهم ذلك لأنه منبثق من الخلفية الاسلامية التي أوجدت هذا المتغير الذى تتمــيز به الشخصية المسلمة عن غيرها من الشخصيات الأخرى بدرجة اكــبر ولذلك كان موضع اهتمام علماء المسلمين . حيث يشير إلى ما ينبغــى ان يكون عليه الإنسان المسلم فى الحياة الدنيا من الإشفاق الذى يتمثل فى أن يكون الإنسان مستشعراً الحذر الذى يحقق له الراحة والــهدوء النفسى فى الحياة الدنيا، ويكسبه مكانة مرموقة فى الحياة الأخرة .

ثالثا: الخشوع[1] ويقصد به " خمــود النفــس ، وهمــود الطبــاع المتعاظم أو مفزع" وهو بهذا يشير إلى حالة انفعالية أخرى تحدث للإنســان تبدو فيما يصدر عنه من شعور بالتذلل وسكون الجوارح عند استشعار نظـو الحق سبحانه وتعالى . ويرى أنه على ثلاثة أنواع :

أ-الخشوع للحكم ، وهو الرضا بما يقــض بــه الله ، والاستســلام لــه ، وانكسار القلب لنظر الحق .

ب-ترقب آفات النفس والعمل ، ويحدث عن ترقب الإنسان لم يحــدث مــن نفسه من آفات تصدر وتبدو فى حركاتها وسكناتها ، لتعــرف وتمــيز الأعمال السليمة من الباطلة ، أو ما يصدر عنها مــن أعمــال الريــاء والعُجب أو لسكونها حالة إقدام الإنسان على عمل تشتهيه النفــس دون

---

(١) منازل السائرين ص (٢١) وشرح منازل السائرين ص ص (٤٥ / ٤٧)

مراعاة الحق سبحانه وتعالى .

جـ-حفظ الحرمة عند المكاشفة ، وتجريد رؤية الفضل ، وبها تتم مراعاة حرمة الإقبال ، وتصفية النفس حال رؤية الأغيار بكمال التعظيم ، ودوام الإستحياء ، ورؤية الفضل لله لا لغيره . وهذه أيضاً إضافة جديدة فى مجال الانفعالات الإنسانية ، وهى الخشوع الذى يصل بالإنسان إلى حالة التذلل والاستسلام بهدف عدم اكشف عما يهتك الحرمة وقد يقع فى هذه الحالة الانفعالية كثير من الناس حفاظاً على حياتهم ، أو كرامتهم أو وجودهم الاجتماعى . إلا أن حديث " أبى اسماعيل " وغيره من علماء المسلمين عن هذا المتغير ينطلق من واقعهم الإسلامى ، وشخصياتهم المسلمة . الأمر الذى يجعلهم يتحدثون عنه فى مجال علاقة الإنسان بخالقه ، ولذلك فهى حالة تدعو الإنسان إلى الالتزام بالأدب والخلق الرفيع حال تصور تواجده بين يدى الله سبحانه وتعالى ، وهو إذا فعل ذلك باستمرار أكسب نفسه هذا السلوك الطيب فى سائر أحواله وتصرفاته الدينية والدنيوية . فضلاً عن أنها تمنع الإنسان من الشطح الفاحش وبذلك يتأدب الإنسان ويعظم خلقه .

رابعا: الحزن : ويقصد به " حالة[1] انفعالية تصيب الإنسان يشعر فيها بانقباض القلب الذى يمنعه من الانبساط وقد يصحبه ألم وغم وكمد " ويذكر أن سببه النظر فى أمر مضى ، أو استشعار الإنسان لفوات أمر

---

(١) منازل السائرين ص (١٩) وشرح منازل السائرين ص ص (٤٠ / ٤١)

كان يجب أن يحدث ، أو كان من الممكن حصوله ، أو نزول مكروه مؤلم في المستقبل ، ويقسمه إلى ثلاثة أنواع :

أ-حزن العامة : وهو الإحساس بالتفريط فى الخدمة أو التورط فى الجفاء ، أو ضياع الأيام نتيجة انشغال الإنسان بالدنيا والكسل فى آداء الأعمال الخيرة أو الندم على ما ضاع من الأيام دون أن يكسب منها شيئاً .

ب-حزن الخاصة : وهو حزن متعلق ببعض الأحوال بعد حفظ الأعمال ؛ كأن يحزن لاشتغال نفسه بغير شهوده لمحبوبه .

جـ-حزن أتم من السابق : وهو حزن على ما حدث من العارضات المشغله عن المقصود ، والإعتراض على الأحكام الجارية بين الناس ، وأنه يجب أن يتلقاها بالقبول والإحترام ، ما لم تكن من الآثام . وهذا النوع من الانفعالات ليس جديداً فى مجال علم النفس ، ذلك لأنه أحد المتغيرات التى يتناولها العلماء بالبحث والدراسة وإن كان يدرس تحت مسميات أخرى فى علم النفس وحددت له مصطلحات معينة . إلا أن تناول علماء المسلمين لهذا الجانب ينطلق - كما سبق القول - من منظورهم الاسلامى معتمدين فى ذلك على ثقافتهم الدينية ، وعلى ما يشغلهم من موضوع الدين والعلاقة بين الإنسان وخالقه .

خامساً : الحياء . ويقصد به[١] " تلك الحالة التى تتولد نتيجة " تعظيم منوط بود " وهى حالة انفعالية تنتاب العبد حال تواجده مع عظيم وتحدث هذه الحالة بناء على علم العبد بنظر الخالق إليه وما يتولد بناء

---

(١) منازل السائرين ص (٤٢) وشرح منازل السائرين ص ص (٧٨ / ٨٩)

على النظر فى علم القُرب ، فيدعوه إلى المحبة ، وهنا تحدث حالة الحياء التى تشوبها الهيبة ، ويرى أنها على ثلاث درجات :

أ- حياء يتولد من علم العبد بنظر الحق ، وهذا يدعو الإنسان إلى مجاهدة النفس ، حياء من الله ، وهو يصون الإنسان من الوقوع في الخطأ . وإن وقع فى اليسير منه رآه قبيحاً . مما يؤدى إلى استقباحه له .

ب- حياء يتولد من النظر فى حلم القرب ، وهو يتولد من إدراكه بان الله سبحانه وتعالى قريب منه ، وهذا القرب يتم بدوام الأعمال التى يرضى عنها الله .

جـ-حياء يتولد من شهود الحضور ، وهى حالة انفعالية تشوبها هيبة ، هذه من شأنها أن تجعل الإنسان لا يقدم على عمل لا يرضى عنه الله حياء منه ، وإدراكاً من الإنسان بان الله يراه . وتحدث الأولى نتيجة استشعار الإنسان نظر الحق إليه ، والثانية نتيجة علمه بقربه منه ولديه ، والثالثة نتيجة الاعتقاد القوى والعلم اليقينى بانه يرى الله فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

سادساً: الورع . ويقصد به " توق[١] مستقصى على حذر أو تحرج على تعظيم ، وهى حالة انفعالية يصل إليها الإنسان بناء على ترك المنهيات ، وتجنب الشبهات والمكروهات ولا يصل الإنسان إلى هذه الحالة

---

(١) منازل السائرين ص (٢٤) وشرح منازل السائرين ص ص (١٤١ / ١٤٤)

إلا بعد أن يزهد فى الحرام ثم يصل إلى مستوى أعلى من الزهـــد ، وهــو الزهد فى غير الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما يطلق عليه " أبو اســـماعيل " ورع الخاصة . ويتم ذلك على ثلاث خطوات :

أ- تجنب القبائح لصون النفس ، والحصول على الحســـنات ، وصيانـــة الإيمان ، وبذلك يحفظ الإنسان نفسه من النقص بعدم مخالفة الخالق .

ب-حفظ الحدود عندما لا بأس به . وبها يحصـــل الإنســان علـــى إبقـــاء الصيانة، والحصول على التقوى ، ويرتفع عن الدناءة ، ويتخلص مـــن اقتحام الحدود ، فيخاف من المتشابه خشية الوقوع فـــى المخالفـــة أو التمادى فى الغفلة . وبهذا يرتقى الإنسان عـــن الصغـائر ، ودنـــاءة الأخلاق ، والبعد عن الوقوع فى الحدود ويحقق بذلك صون نفسه مـــن العذاب فى الدنيا والآخرة .

جـ-التورع عن كل داعية إلى شتات الوقت ، والتعلق بالتفرق ، وعـــارض يعارض حال الجمع ، وهو ورع من الخواطر الداعية إلـــى تفريـــق البال ، والبعد عن كل عارض يعارض الجمع . أى إفراد الحق سـبحانه وتعالى بالقلب والطلب والإعراض عن كل عمل أو سبب يخرج الإنسان عن هذه الحال .

سابعاً : السكينة(١) تشير إلى هدوء النفس وســكونها وهـــو ليـــس بالهدوء والسكون الذى تتعارف عليـــه ، ذلـــك لأنـــه - كمـــا وصفـــه " الاسكندرى " هو عبارة عن ريح هفافه وشىء - عن لطـــائف صنـــع الله ،

---

(١) منازل السائرين ص (٦٧) وشرح منازل السائرين ص ص (١٤١ / ١٤٤)

يجمع نوراً وقوة وروحاً يسكن إليه الخائف ويتسلى به الحزين والضّجر ، ويستكين إليه العصى والجرىء . وإذا حلت بالنفس الإنسانية عُمر القلب بمعانيها ، واستخرج الإنسان من هم التدبير . وبذلك يستقيم على الصراط . حيثِ إنه إذا قويت معانى السكينة فى القلب دعت النفس إلى السكينة التى تبدو فى سكون الجوارح ، وهدوء المشى ، وتثبيت فى الكلام ، وحياء فى الوجه . وهى حالة تنتاب الإنسان المؤمن التقى ، حين تحل المصائب أو تنزل النزائل حيث يفزع الناس من أمثالها .

ويعتبر هذا المتغير إضافة جديدة فى مجال الحديث عن الانفعالات . فضلاً عن أنه متغير يشير إلى تميز الرؤية الاسلامية للجوانب الانفعالية لدى الإنسان المسلم ، ومايتيحه الاسلام من امكانيات تحقيق درجة أعلى من السواء النفسى .

ثامنا : الشوق ، ويقصد به[١] " هبوب القلب إلى رؤية غائب " وهى حالة انفعالية تنتاب الإنسان إلى المحبوب لتحقيق ما يتطلع إليه من غائب كشوق الإنسان إلى الجنة ليأمن الخائف ، ويفرح الحزين ، وهو ينتج عن حب الله سبحانه وتعالى على اساس " إدراك الإنسان لنعمه واعترافه بها ، وتفكره فيها . الأمر الذى يؤدى إلى المحبة التى بها يحدث الشوق إلى الله عز وجل، وهو شوق لا تطفئه التأويلات للنفس أو الحجج إلا لقاء مع الله والعودة إليه .

---

(١) منازل السائرين ص (٧٣) وشرح منازل السائرين ص ص (١٥٦ / ١٥٨)

ويرى أنه ياتى على ثلاث درجات الأولى : شوق الإنسان العابد إلى الجنة . الثانية: شوق إلى الله عز وجل الذى يكون فيه الإنسان فى حالة من الشوق لمعاينة لطائف كرمه وآيات بره واعلام فضله . الثالثة : شوق نار اضرمتها صفو المحبة . وصاحبها لا يرى لكمال شوقه غير ما اشتقاق إليه ولا يرده عن مقصوده شيء من التأويلات للنفس والحجج حتى يلقى من تبذل فى رضائه الأرواح والمهج .

وهذا المتغير يعتبر من الاضافات التى يضيفها العالم الاسلامى فى مجال الانفعالات والتى يبرزها فى مجال علاقة العبد بخالقه ، ويبين مدى هذه الحالة الانفعالية التى يكون عليها الإنسان . فضلاً على ما يترتب على تواجد هذه الحالة لدى الانسان من اصدار أنواع السلوك السوى الذى يصدر عنه حال تعامله مع غيره من البشر . حيث يكون التعامل على أفضل مستوى ، ذلك لأن الإنسان صاحب الشوق لله يسعى بكل ما يملك من أسباب إلى رضاء الله سبحانه وتعالى . الأمر الذى يهيىء جواً نفسياً طيباً بين الناس.

تاسعاً السرور : ويقصد به "[١] اسم لاستبشار جامع " وهى حالة انفعالية تنتاب الإنسان حال حدوث ما يدعو إلى السرور الذى هو أصفى من الفرح لأن الأفراح ربما شابها الأحزان ، ذلك لأن هناك فرقاً بين السرور والفرح الذى يعنى " حركة القلب لحصول

---

(١) منازل السائرين ص (٨٤) وشرح منازل السائرين ص ص (١٧٦ / ١٧٨)

محبوب وهو مدرك لما يحزن عليه والتى تظهر بشكل واضح فى حركة القلب ، وقد ينتابها قدر من الحزن لسبب من الأسباب أو علة من العلل ، ويكون الإنسان على ادراك بها . ولذلك نجد أن القرآن الكريم وصف حالة السعادة التى يعيشها الإنسان فى الدنيا بأنها " أفراح الدنيا " بينما يرد السرور عند ذكر حال الإنسان فى الآخرة . وهو يرى أن هذا السرور ياتى على ثلاث درجلت :

أ- سرور يذهب بأحزان خوف الانقطاع كظلمة الجهل ، ووحشة الفواق .

ب- سرور بسبب كشف حجاب العلم ، وفك رق التكلف .

جـ-وسرور بسبب سماع الإجابة وهو سرور يمحو آثار الوحشة ويقرع باب المشاهدة ، ويضحك الروح .

ومما تقدم يتضح أن العالم الاسلامى يدرك تمام الادراك الفرق بين السرور والفرح ، الأمر الذى جعله يوضح هذا الفرق حيث اعتبر أن الحالة الانفعالية التى يكون عليها الإنسان وهو مسرور ، تختلف عن الحالة الانفعالية التى يكون عليها وهو " فرح " ومن هذا يبدو واضحاً أن اللفظين لا يدلان على حالة انفعالية واحدة . بل أن كل لفظ يدل على حالة خاصة متباينة عن الأخرى . وهذا يشير إلى مدى الدقة التى يتميز بها العالم الاسلامى عند عرض المتغيرات المختلفة والمتعددة .

وبناء على هذا العرض لبعض الجوانب الانفعالية التى تنتاب الإنسان المسلم . يلاحظ أن الدراسات النفسية التى قدمها علماء الاسلام ومنها دراسة " أبى اسماعيل " تحت أى مصنف من مصنفاتهم ، تهتم اهتماماً بالغاً بالإنسان . حيث نجد أنهم قد رصدوا كثيراً من الجوانب الانفعالية التى يعيشها الإنسان فى حياته الدنيا . ولم تقتصر على ماهو شائع ومعروف من هذه الجوانب فى مجال علم النفس . بل اطلعتنا على حالات انفعالية يتميز بها الانسان المسلم عن غيره من الناس ، لذلك نرى أن "أبا اسماعيل" يعرض حالات انفعالية جديدة كالاشفاق ، والخشوع ، والحياء والورع ، والسكينة ، والشوق . بالإضافة إلى بعض الحالات المعلومة فى مجال علم النفس ، كالخوف ، والحزن ، والسرور ، ومن هذا يتضح مدى ثراء الدراسات النفسية فى هذا المجال .

الدوافع

كما تناول " أبو اسماعيل " فى كتابه منازل السائرين عدداً من العوامل النفسية التى تشكل أهمية فى حياة الإنسان والتى يمكن تصنيفها تحت الدوافع الإنسانية التى أكد أهميتها علماء النفس فى إثبات وجود الإنسان وتحقيقه ذاته. ومن هذه الدوافع التى استطاع الباحث أن يضع يده عليها الرغبة ، والهمة . على اعتبار أنهما دافعان لهما أهمية كبيرة فى تسيير أمور حياة الإنسان على أساس سليم يمكنه من أن يحيا حياة نفسية صحيحة - وفيما يلى عرض لهذين الدافعين .

الرغبة:[1] وقد عرفها " أبو اسماعيل " ببيان علاقتها بغيرها من العوامل النفسية وهو الرجاء الذى عرفه بأنه " طمع يحتاج إلى تحقيق " إلا أن الرغبة سلوك على تحقيق . وهذا يعنى أن الرغبة فى الشىء تعنى دافعاً لدى الإنسان يدفعه إلى تحقيق هدف معين ، ولا يمكن أن يتحقق الهدف إلا بعد امتلاء القلب به ، وبكمال صفاته وغلبة الظن بحصوله ، وقوة العزم ووقوعه بخلاف الرجاء .

وهذا يشير إلى أن الرغبة تختلف عن الرجاء بأنها تدفع الإنسان إلى السلوك . بينما الرجاء يظل كحالة نفسية يعيشها الفرد أملاً فى التحقيق . كما أن الرغبة تتطلب الجد فى الطلب ، وغلبة الأحوال التى تجعله يحقق بقدر ما يسعى إلى تحقيقه ، ولذلك فهى تبعث على الاجتهاد وتصون

---

(١) منازل السائرين ص (٢٧) وشرح منازل السائرين ص ص (٥٦ / ٥٧)

السالك من الفتور والوهن . وهو يرى أنها على ثلاث درجات :-

أ-رغبة أهل الخير . وتتولد هذه من العلم بقيمة الشيء المرغوب فيه . الأمر الذى يدعو إلى مزيد من الدفع والاجتهاد للحصول عليه ، فلا يكسل أو يصاب بالفتور أو يعود إلى استخدام الرخص البعيدة عن أحوال أهل الجد .

ب- رغبة أرباب الحال . وهى رغبة لا تبقى من المجهود إلا مبذولاً ، ولا تدع للهمة ذبولاً ، ولا تترك المقصود مأمولاً . وهى بذلك تفوق سابقتها. حيث تدفع هذه الرغبة صاحبها فى استمرار القوة على الجد والاجتهاد للحصول على المراد ، فلا يصاب بالضعف والفتور . الأمر الذى يجعل الإنسان يبذل كل ما فى نفسه من مجهود بما يساعد على تعزيز قوته لتحصيل المقصود .

جـ-رغبة أهل الشهود . وهى تشرف تصحبه تقية ، تحمله همة نقية ، ولا تبقى معه من التفرق بقية . وهى درجة تعلو وتفوق ما قبلها . حيث تدفع صاحبها للتعلق بالله سبحانه وتعالى ، ودوام النظر إليه ، فتشرف النفس بإحساس القلب وإدراكه لعظمة الرب تعالى ، واستمرارية الهيبة له . ولذلك يكون صاحبها تقياً أى حذراً وهياباً لله سبحانه وتعالى . وبذلك يصبح الإنسان دائماً مع خالقه .

ولعل ماتقدم يشير إلى أن الرغبة تعتبر من الدوافع التى تدفع الإنسان المسلم إلى الاجتهاد والجد لتحصيل المراد من رب العباد ، وصيانة النفس من الكسل والفتور ، فيأخذ بالأسباب دائماً مجتهداً فى طلب ما يتطلع إليه .

فلا يقع بذلك فى الذنوب والخطايا . وإذا كان هذا هو مفهوم الرغبة من وجهة نظر أحد علماء المسلمين ، فهى بذلك تشكل أهمية بالغة فى حياة الإنسان المسلم لما يكون عليه من مستوى الدافعية التى تمكنه من تحقيق أهدافه وأغراضه وإذا تواجدت هذه الرغبة فى حياته فإنه ينفذ مشيئة الله سبحانه وإرادته من خلق الإنسان ؛ هى عمارة هذا الكوكب الذى يتطلب ضمن ما يتطلب العمل ، ونشر أسس الحياة الإنسانية السليمة . والإنسان فى رغبته هذه لتحقيق الأهداف والأغراض المقصودة يتطلع إلى الله ، ويسعى بمختلف الطرق للتقرب إليه ، فتشرق النفس بعظمة الرب ، وهيبة جلاله ، وهنا يصل الإنسان إلى درجة من التقوى التى تعينه على أن يسلك سلوكاً سليماً فى حياته الدنيا ابتغاء رضا الله والتقرب إليه . الأمر الذى يجعل السلوك الإنسانى سلوكاً سوياً يتيح قدراً كبيراً من التعاون على اساس من المحبة فى الله تدفع الجميع إلى نشر الخير كل الخير على الأرض .

الهمة : ويقصد بها " أبو اسماعيل " ما يملك الانبعاث[1] للمقصود صرفاً ولا يلتفت عنها . أى أنها القوة الدافعة للحصول على المقصود ، وأن قوة هذا الدافع قوة مستمرة لا تجعل صاحبها يضعف أو يتحول إلى غير المقصود ؛ وهى على ثلاث درجات :

الأولى :همة تصون القلب من خسة الرغبة فى الفانى ، وتحمله على

---

(١) منازل السائرين ص ص (٦٩ / ٧٠) وشرح منازل السائرين ص ص (١٤٧ / ١٤٨)

الرغبة فى الباقى. وهى بذلك تعنى تلك القوة الشديدة التىتدفع صاحبها إلى ممارسة الأعمال الخيرة ، وبذلك يتحول الإنسان من ممارسته لأعمال الدنيا الفانية إلى أعمال الآخرة الباقية وبذلك يظل فى عمل دائم ولا يتوانى أو يكسل فى كل ما يقصده أو يسعى إليه .

والثانية : هى الهمة التى تورث انفه من المبالاة بالعلل ، والنزول عن العمل ، والثقة بالأمل . وهى درجة أتم مما قبلها . حيث كان للأولى أثر صيانة قلب الإنسان من الاشتغال بأعمال الدنيا الفانية ، ودفعه لممارسة أعمال الآخرة الباقية . إلا أن الثانية تدفع صاحبها إلى إتقان الأعمال الخيرة التى تنفعه فى الحياة الآخرة . فلا يتعلق إلى السكون بالأسباب والعلل ، أو أمل يمنعه من المبادرة فى الحال إلى ممارسة الأعمال الحسنة وإتقانها .

والثالثة : هى همة تصاعد عن الأحوال والمقامات ، وتنحو عن النعوت نحو الذات . وهى أرفع مما قبلها . حيث يصبح صاحب هذه الدرجة من الهمة ناظراً إلى الله سبحانه وتعالى فى كل حال ومآل ، وبذلك لا يكون غافلاً فى أى عمل من الأعمال أو حال من الأحوال عن الحق طلباً فى الجزاء منه سبحانه وتعالى . فتدفع صاحبها إلى الاشتغال بجلال مالكها و كماله ، وعظمته وكبريائه .

إن الفاحص لمفهوم الهمة كما حددها " أبو اسماعيل " يرى أنها تختلف فى قوتها كدافع من الدوافع الإنسانية وخاصة عن دافع الرغبة ، ذلك لأن الهمة تعتبر ذات قوة دفع مستمرة الدفع لا تفتر عن ممارسة الأعمال التى تحقق الأهداف المنشودة . وأنه قد حدد لها ثلاث مستويات ،

ولكل مستوى من هذه المستويات أهدافه الخاصة ، فالأول يهدف إلى صيانة قلب الإنسان من الاشتغال بأعمال الدنيا الفانية ، ودفعه لممارسة الأعمال التى تنفع فى الآخرة . والثانى يهدف إلى دفع صاحبها إلى دقة واتقان الأعمال الخيرة التى تنفعه فى الحياة الآخرة . وهى بذلك لا تعطى لصاحبها الفرصة للأخذ بالعلل، أو أمل ما يمنعه من المبادرة السريعة لممارسة الأعمال الحسنة واتقانها . والثالث منها ؛ يهدف إلى همة دائمة الدفع مستمر لا تفتر - تجعل صاحبها فى حالة نظر دائم إلى الله . الأمر الذى لا يجعله غافلاً - ولو للحظة - فى أى عمل من الأعمال أو حال من الأحوال طلباً للجزاء من الله سبحانه وتعالى.

ومن الملاحظ - أيضاً - أن الرغبة ، والهمة كدوافع إنسانية تدفع صاحبها لممارسة الأعمال وإتقانها تقرباً إلى الله عز وجل ، وأملاً فى الحصول على الثواب فى الدنيا والآخرة وانشغالاً بجلاله وعظمة كبريائه . أى أنها دوافع للارتباط بمنهج الله - قولاً وعملاً - بغرض تحقيق الهدف الأسمى وهو التقرب إلى الله ، والحصول على رضاه . كما يمكن القول بأن الهمة تعتبر - كدافع - إضافة جديدة للدوافع المتعارف عليها فى مجال علم النفس .

المراجع

١-ابن القيم الجوزية. مدارج السالكين جـ١. تحقيق محمد حامد الفقـــى . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة : ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م .

٢-ابن قيم الجوزية . مدارج السالكين جـ٢ . تحقيق محمد حامد الفقـــى . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة : ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

٣-ابن قيم الجوزية . مدارج السالكين جـ٣ . تحقيق محمد حامد الفقـــى . مطبعة السنة المحمدية . القاهرة : ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م .

٤-أبواسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى . منازل السائرين . تحقيق الأب س . دى لوجيـــه ٣٩٦ / ٤٨١ هـــــ / ١٠٠٦ / ١٠٨٩م دى بوركى الدونيكى مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثـــار الشرقية القاهرة : ١٩٦٢.

٥-عبد المعطى اللخمى الاسكندرى . شرح منـــازل الســـائرين . مطبعـــة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٤.

٦-نبيه إبراهيم اسماعيل . الصحـــة النفســـية للطفـــل ، مكتبـــة الأنجلـــو المصرية، القاهرة : ١٩٨٩ .

٧-نبيه إبراهيم اسماعيل . من أسس الصحة النفسية فى الإسلام . مطبعـــة الولاء .شبين الكوم : ١٩٩٣ .

من الدراسات النفسية
فى
التراث العربى الإسلامى

الدراسة الرابعة

الدراسات النفسية
عند
ابن قيم الجوزية
(٦٩١ /٧٥١هـ)

تعريف بابن قيم الجوزية:

هو الشيخ شمس الدين أبو عبد الله محمد أبى بكر بن أبــــى الزرعــى المشهور بــــابن قيم الجوزية الدمشــقى رحمة الله تعالى ورضــــى الله عنة . وأشتهر بهذا الاســـم - ابن قيم الجــوزية - لأن والــــده كــان قيمــاً للمدرسة الجوزية الكائنة فى ســوق البزوريــة بدمشـــق. ولـــد سنه (٦٩١ هـــ) فى قرية زُ رع مــن قرى حوزان قـــرب دمشـــق . وتلقى العلم عن مشايخ تلك الديار فى عصره ؛ فسمع الحديــث ، والفقــه، والأصول ، والفرائض على كثير من علمـــاء عصـــره . وتوفــى فــى عام (٧٥١ هــ).

وقد ترك عديداً من المؤلفات فى مختلـف العلــــوم والفنـون؛ فــى التفسير، والحديث ، والفقة ، والأصول والعقـــائد، والديانـــات، والطـب، والنحو، والأدب،والتصوف، والأخلاق، والفروسية،وغيرها مـــن المجـالات العلميـــة والفنية، والتى تشير إلى أنه - كما وصفه العلمـــاء - عـالم فياض، واسع العلم والمعرفة، وأنه ذو رأى سديد، وأنه متبحر فى كل فـن . كما أنـــه مؤلف واضح الرؤية، سلس العبارة، دقيـــق اللفــظ ، واســـع التبويب، والتفصيل، والتقسيم، والتنويع، والتحديد، والجمـــع،والتفريــــق، وكلها دلالات على ماكان يتمتع به ابن قيم الجوزية من امكانيات وقــدرات عقلية عالية.

وكان رحمه الله شديد الولع بالعلم والمطالعـــة، والكتابـــة، واقتنـــاء الكتب حيث يذكر المترجمون له أنه كان يقتنى من الكتب والمؤلفات ما لـــم

يحصل لغيره كما أنه كتب بخطه مالا يوصف كثره ولذلك نجد أن مؤلفاتـــه قد قاربت المائة مؤلف.

هذا ؛ وقد دَرَّس بالمدرسة الصدرية، وأم بالدرسة الجوزية مدة طويلة. وكما هو واضح مما سبق؛ فإنه يتميز بحياة علمية واسعة، ويحتاج إلى دراسة عميقة ودقيقة لحياتة ،وأمانته، وآرائه فى مختلف العلوم والفنون، وفتواه، وآرائه الخاصة ، وتلاميذه، ومؤلفاته، وأثره الفكرى الممتع الدقيق الحى فى عقول وقلوب أهل العلم والمعرفة من زمنه إلى يومنا هذا. هذا؛ فضلاً عن شهادة كثير من العلماء بقيمة علمه ، ورقى تفكيره، وعظيم اهتمامه بالانسان المسلم وسلوكه. فقد جاء فى طبقات الفقهاء والمحدثين من أصحاب الأمام المبجل سيدنا الإمام أحمد بن حنبل تأليف الحافظ الامام عبدالرحمن بن رجب البغدادى الحنبلى- ما لفظه- أن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن سعد بن حريز الزرعى الدمشقى الفقيه الأصولى المفسر .. ابن قيم الجوزية أنه عالم بعلم السلوك. وهذا ما دعانى للبحث فى مؤلفاته عن الدراسات النفسية فى التراث الاسلامى.

هدف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى محاولة الكشف والتعرف على الدراسات النفسية فى التراث العربى والاسلامى، وبيان وجهتها وأغراضها التى من أجلها أُجريت هذه الدراسات . كما تهدف إلى لفت أنظار الدارسين والباحثين إليها للعمل على حصرها وجمع

شتاتها من أمهات الكتـــب الإســلامية ، وبيـــان أهميتـــها وقيمتـــها فـــى حياة الإنسان وآخرتـــة.

نشأة الدراسات النفسية:

من المعلوم أن كل دراسة من الدراسات العلمية، سواء أكـــانت علـــى المستوى النظرى أو التجريبى تحدد أهدافها التى تسعى إلى تحقيقـــها ، أو تبنى فروضها التى تريد أن تتحقق مـــن صحتـــها أو بطلانـــها. والمتتبـــع للدراسات النفسية فى التراث الاسلامى ، يدرك تمام الإدراك الظروف التـــى نشأت فيها هذه الدراسات ، والأهداف التى حددت سلفا، قبـــل إنجازهـــا . حيث إن الدين الاسلامى قد انتشر وعم كثيرا من الأرض المعمورة ،وســـعى الناس للتعرف عليه ودراسة كنه وحقيقة هذا الدين، و مـــا يـــترتب علـــى الاعتقاد به فى حياتهم الدنيا .

ولهذا وقع على عاتق علماء الدين الإســـلامى مســئولية التعريـــف بحقيقة هذا الدين، وبيان وتوضيح القصد منه ، وأهميـــة الدخـــول فيـــه ، والإيمان به، والالتزام بمنهجه،وتنفيذ أوامره، والإلتزام بما نهى عنـــه الله . كذلك بيـــان وتوضيح علاقة هذا الدين بالحياة الدنيا والآخره والعائد المثمر على حياة الإنسان إذا ما التزم به وبمنهجه . فكانت كتاباتهم فـــى حقيقـــة الإيمان ، والعقيدة، والفقه،والأصول... وغيرهـــا من العلـــوم ذات الارتبـــاط الوثيق بالدين بشكل مباشر، ثم جاءت بعد ذلك الدراسات التى توضح طبيعة العلاقة بين الدين وحياة الإنسان ، والتى من بينها الدراسات النفسية لتبيـــن للناس مدى ارتباط الدين الإسلامى بحياة الإنسان وكيفية معالجة كثير مـــن

الأمور النفسية والعقلية والاجتماعية التى تواجه الإنسان المسلم فى حياتـــه. فضلاً عن بيان ما تكون عليه دوافع الانسان المســـلم وانفعالاتـــه وكيفيـــة اشباع حاجات الإنسان ومتطلباته فى ظل هذا الدين وذلـــك بـــهدف تحقيـــق مستوى أفضل من السواء النفسى والرقى الإنسانى.

ومن الملاحظ- أيضاً - أن علماء الإسلام عندما تفضلوا ببيان كل مـــا تقدم كان هدفهم الأسمى كتاب الله وســـنة نبيـــه ﷺ ، وكيفيـــة عبـــادة الرحمن عبادة تليق بعظمته وجلاله، بهدف تحقيق رضـــاه ، لمـــا يـــترتب علـــى ذلك من نفع فى حياة الإنسان الدنيا والآخرة . ولذلك يبدو واضحـــاً إنه ليـــس هناك انفصال بين هذه الدراسات النفسية وبين الدين الإســـلامى، سواء على مستوى كلياته أو جزئياته.

لقد تناول " ابن قيم الجوزية " فى مؤلفه" مدارج السالكين " عدداً مـــن العوامل والمتغيرات التى يمكن تصنيفها تحت علم النفس ، فقد تحدث عـــن النفس ومفهومها؛ فعرفها بأنها[(١)] ما كان معلوماً مـــن أوصـــاف العبـــد، مذموما من أخلاقه وأفعاله سواء أكان كسباً، أو خلقياً" ومن هـــذا يفـــهم أن النفس الإنسانية يمكن التعرف عليها عن طريق ما يصدر من صاحبها مـــن سلوك، سواء كان هذا السلوك مكتسباً أو خلقياً.

ويذكر أنه يستدل على نوعية النفس عن طريق ما يظهر عنها مـــن الصفات. حيث إن السلوك الصادرعن نفس صاحبها يشير إلى أنـــها نفـــس

---

(٢) مدارج السالكين جـ (٢) ص (٨/٦)

مذمومة[١] ويؤكد مع غيره من العلماء علـــى أن النفـــس الانســـانية إذا تلطفت ، وفارقت الرذائل صارت نفسا نقية تصل فى صفاتهـــا إلـــى حـــد الروح.

هذا ؛ ويتعرض" ابن القيم"لأنواع النفس، ويدعم وجهة نظره فيـــهاعن طريق وجهات نظر الآخرين فى النفس . فيذكـــر أن " ســـعيد بـــن جبيـــر وعكرمة " يريان أن النفس اللوامة؛ هى التى تلوم . أى هى تلك النفس التى تلوم على فعل الخير والشر، ولا تصبر على السراء، ولا علـــى الضـــراء . على حين يرى " قتادة" هى تلك النفس الفاجرة . ويـــرى " مجـــاهد" أنـــها النفس التى تندم على ما فات؛ وتقول : لو فعلت ؟ ولـــو لـــم أفعـــل ؟ إلاأن "الفراء" يرى أنه ليس من نفس بَرَّة، ولا فاجرة إلا وهى تلـــوم نفســـها؛ إن كانت عملت خيراً قالت : هَلاَّ زدت. وإن عملت شراً قالت: ليتنى لم أفعـــل . بينما يرى "الحسن"أن النفس المؤمنة هى النفس اللوامة، وذلك لأن المؤمـــن ما تراه إلا يلوم نفسه. حيث يعلن ويقول : ما أردت بكلمة كذا ؟ ومـــا أردت بكذا؟ وأن الفاجر يمضى قدماً ولا يحاسب نفسه ولا يعاتبها . هذا؛ ويشـــير كذلك إلى رأى "مقاتل" الذى يرى أن النفس اللوامة هـــى النفـــس الكـــافرة، والتى تلوم نفسها فى الآخرة على ما فرطت فى أمر الله فى الدنيا. .

وهو يصور النفس على أنها جبل كبير ضخم تعوق الإنسان للســـير فى طريق الله، وأنه يوجد من الناس من يعبر هذا الجبل بما فيه من أسـباب الإعاقة للوصول إلى الله . ويذكر أن الطريق سهل وميسور . ومنـــهم مـــن

---

(١) مدارج السالكين جـ (٣) ص (٢٤٧)

يرى أنه طريق صعب وعر به من العقبات ما تحول بينه وبين ربه . ويذكر أنه لا يصل إلى الله إلا النفس المؤمنه، والتى على درجة عالية من اليقين تعين الإنسان على التخلى عن رغباته وشهواته التى تغضب الله . والأمر على خلاف ذلك بالنسبه للنفس ضعيفة الإيمان مخلخلة اليقين، يعينها الشيطان على عدم الوصول إلى الله فيخيفها من صعوبة عبور الجبل وارتفاعه، وما به من عقبات وأشواك وأودية وشعاب. وينتهى " ابن قيم الجوزية " إلى[1] أن النفس نفس واحدة وليست ثلاثة أنفس بالذات والحقيقة أنها لها صفات ثلاثة ؛ هى المطمئنة، واللوامة ، والأمارة.

هذا ؛ وقد تناول "ابن القيم" فى كثير من مؤلفاته الحديث عن العديد من المتغيرات والعوامل النفسية التى أردت الإشارةإليها كمثير لطلاب العلم والمعرفة، والراغبين فى عملية البحث والدراسة عن الدراسات النفسية فى كتب التراث، كلبنة أولى وأساسية للانطلاق فى توضيح المدخل الإسلامى وبيان وجهة نظره فى مختلف مجالات علم النفس ومتغيراته وعوامله.

ومن بين المتغيرات التى تعرض لها "ابن القيم" التفكر[2] الذى يعتبره ضرورة وسببا من أسباب المعرفة، وعن طريقه يتمكن الإنسان من الوصول إلى حقائق الإيمان، وإلى درجة الإحسان ، والتى تعتبر خاصية

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٤٤٠ / ٤٤٥)

(٢) مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٤٤٠ / ٤٤٥)

من خصائص ذوى العقول؛ ويعتمـد"ابن القيم"فى بيـان وتوضيح هـذا العامل النفسى على ما ذكره " صاحب المنازل" (١) فى هذا المجـال . حيث أورد مقولته التى تقول بأن "التفكر هى التماس الغايات من مبادئها" .

كما يشير "ابن القيم" - بالإضافة إلى ما تقدم - إلـى أنـه وسـيلة الإنسان لاستدراك الأهداف وتحقيقها. كما أنه وسيلة للحصول على التذكـر، علىأساس أن التذكر يحتفظ بالمعانى التى حصلت بالتفكر من مواقع الآيـات والعبر . أى أن هذه المعانى التى يحفظها التذكر هى نتاج عملية التفكر .

وأن هذه المعانى التى احتفظ بها فى الذاكرة تكون سببا فـى تقويـة عزم الإنسان المؤمن على السير بحسب قوة الاستبصار . حيث إنـه كلمـا اشتغل الفكر بالإيمان ازداد الشعور به، والبصيرة فيه، والتذكر له .

ومما تقدم من عرض لوجهـة نظر "ابن القيم " فى عـامل التفكـر يتضح قيمته وأهميته بالنسبة لحياة الإنسان فى الدنيا والآخـرة . حـيث يقوى به إيمان الفرد ، ويزداد إيماناً على إيمانه لوصوله إلى أعلى درجـة من درجات الاستبصار باستخدامه فى معرفة الحقيقة وإدراكها إدراك العيـن، والوصول إلى اليقين الذى لاشك فيه .

وبهذا يبين "ابن القيم" فوائده التى تحددها ثمرتيـن - علـى حـد تعبيره- الأولى: " حصول المطلوب تاما بحسب الامكان" . والثانية" العمـل بموجبه فى رعاية حقه " . حيث إن العمل الصالح هو ثمرة العمـل النـافع

---

(١)أبو اسماعيل الهروى ص (١٣)

الذى هو ثمرة الفكر .

وبناء على هذه الرؤية التى قدمها "ابن القيم " لعـامل التفكـر فإنـه يمكن القول بأن علماء الإسلام لم يهملوا مثل هذا العامل لما له من أهميـة فى إحساس الإنسان بوجوده، وشعوره بذاته، ووسيلته للإحسـاس بـالأمن والطمأنينة عن طريق كشف الحقائق وبيان ما هـو غامض. الأمـر الـذى يريح الإنسان فى حياته الدنيا، ويحقق له الخـير كل الخير فـى الآخـرة . وذلك بفضل تفكره واستخدامه لعقله فى الوصـول إلـى الحـق ومعرفـة الحقيقة .

ولهذا يؤكد علماء المسلمين على أهمية التفكر والتفكير لأنها وظيفـة أساسية وضرورية فى حياة الإنسان المسلم . حيث يصل بها إلـى حقيقـة الإيمان، وإدراك دوره فى الحياة، وبيان وتوضيح قدرة الخـالق، ونعمـه على الإنسان التى لاتعد ولاتحصى . الأمر الـذى يلزمـه بصـدق الأقـوال والأفعال والأعمال مع الله ثم مع البشر، فيصبح كل ما يصدر عن الإنسـان من سلوك نمطاً صحيحاً، فيشعر بالسواء النفسى وينعم به فى الدنيا، وينـال جزاءه فى الآخرة .

التذكر:(١)

ويتناول " ابن القيم " الحديث عن عامل التذكر الذى يعتـبر ضـرورة من الضرورات اللازمة لإحداث النتائج العلمية بجانب التفكر . حيـث يـرى

---

(١) مدارك السالكين جـ (١) ص ص (٤٤٠ / ٤٤٥)

أنهما معاً يثمران أنواع المعــارف فضــلاً عن أنهما يمكنان الإنسان مــن معرفة حقائق الإيمان والإحسان . ويرى أنهما سمتان ضروريتان فى حــياة الإنسان حتى يفتح الله عليه أبواب الخير والبركة . ويؤكد على أن الإنســان "لايزال بتفكره على تذكره وبتذكره على تفكره " حتى يفتح قلبه بــإذن الله، ويدخل الإيمان فيه . ويستشهد بقول " الحسن البصرى " فى هذا المجــال- لبيان أهمية وقيمة التذكر، وأثره فى عملية التفكير - "مــازال أهــل العلـم يعودون بالتذكر على التفكر، وبالتفكر على التذكر وينطقون القلــوب حتــى نطقت" .

ويعلق "ابن القيم " على ما ذكره " صاحب المنازل " فــى مجــال التذكر بأن "التذكر وجود" أى أن إحساس الإنسان بوجوده يكون بقدرتـــه على التذكر. كما أن التذكر ضد النسيان . وأن به يتم حضور صورة المذكور العلمية فى القلب . وأن مجئ التذكر على وزن (التفعل) لحصــول التذكــر بعد مهلة وتدرج؛ كما هى الحال فى التبصر، والتفهم، والتعلم . ومن أجــل ذلك يرى "ابن القيم" أن منزلة التذكر مــن التفكر مـــنزل حصــول الشــئ المطلوب بعد التفتيش عليه . كما أنه يرى أن بالتذكر تزول غفلة الإنسان .

هذا؛ ويعتبر "ابن القيم " أن (التذكرة) آلة (الذكر)، كما أن (التبصرة) آلة (البصر) وأنهما من سمات أهل الإنابــة والرجــوع إلــى الله ســبحانه وتعالى. وأن الإنسان إذا أراد التذكر لابد أن يكون خاليــاً مــن المشــاغل، ومستعدا للتذكر . وإلا فلا يحدث التذكر، وبذلك لا تحصل له الذكرى . .

وهو بهذا البيان والتوضيح لعامل التذكر يبرز أهميته وضرورته فــى

حياة الإنسان الدنيا والآخرة . وأنه بدون التذكر لا يســـتطيع الإنســان أن يستمر فى حياته الدنيا بالصورة والشكل الذى ينبغى أن يكون عليه السـلوك الإنساني السليم، والذى به يستطيع أن يحقق ما يتمناه فى حياته الآخــرة . حيث إن استخدام الإنسان لهذه القدرة تجعله لا يغفل سبب وجوده وحياتــه، فيسعى بكل مــا يملك من قــوة عقليــة وحســية وماديــة لتحقيــق الـخير لــه ولغــيره مــن النــاس . ومن هنا يكــون التذكــر ســبباً رئيسياً من الأسباب التى تعين الإنسان على إصدار أنماط السلوك الصحيح، والتى تعتبر وسيلة للحياة الصحيحة ورصيداً له فى الآخرة .

ولهذا نجد أن "ابن القيم" يبيــن فــائدة التذكــر بأنــها "الانتفــاع بالعظة" أى بما يسمعه من الـــهدى والرشــد، والنصــائح ســواء جــاءت على لســان رسول الله ﷺ أو على لســان عامــة النــاس فــى مصــالح الدين والدنيــا . فضـــلاً عــن الاســتبصار بــالعبرة . بمعنــى أن هــذا الاستبصار يعمل على زيــادة البصــيرة ممــا كــانت عليــه مــن منزلــة التفكر وذلك بقوة الاستحضار والتذكــر الــذى يتــم عــن طريــق تعقــل المعانى التى حصلت بـــالتفكر .

هــذا ؛ وعندمــا يتنــاول "ابــن القيـــم " هذيـــن العـــاملين – التفكروالتذكر– بالحديث فإنه يعرضهما من خــلال وجهــة نظـر الإســلام والمســلمين . ويربطــهما بالثقافــة الإســلامية موضحــاً قيمتــهما فــى تعميــق إيمــان المؤمـــن وحســـن اســـتثماره فــى حياتــه الدنيــا والآخــرة .

الاغتراب:

ويتعرض "ابن القيم "[١] لعامل نفسى آخر من العوامل التى اهتم بـها كثير من علماء النفس فى العصر الحديث . ويعتمد " ابن القيم " فى حديثـه عن هذا العامل على ما أشار إليه "صاحب المنازل" ، ويتفق معه فى تحديـد مفهوم الاغتراب، يرى أن الاغتراب حالة نفسية تعنى الإنفراد عن الأكفـاء . ويذكر أن لحالة الاغتراب علامات منها؛ انفراد الإنسان بوصـف شـريف دون أبناء جنسه، وأن هذا يجعله غريبا بينهم لعدم المشاركة .

كما يذكر أن الغرباء هم هؤلاء المؤمنون الذيـن يـزداد إيمانـهم إذا نقص إيمان الناس ، وهم الذين يصلحون إذا فسد الناس، وأنهم هم الذيـن يزيدون خيراً وإيماناً وتقى إذا نقص ذلك عنـد النـاس . وهـو يعتمـد فـى بيان وتحديد الغرباء على أحاديث رسول الله ﷺ .

هذا؛ ويذكر عدداً من أنواع الغربة متفقاً فى ذلك مع " صـاحب المنـازل " منها:

غربة عن الأوطان* : وهى غربة بالأبدان؛ ويرى أنـها غربـة لاتحمـد ولاتذم.

غربة الحـال : وهى غربة يشعر بها الإنسان الصالح فى زمـن فيه قوم فاسدون أو وجد عالم بين قوم جاهـلين،

---

(١)مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (١٩٤ : ٢٠٥)

* ليس الغريب من تناءت دياره ؛ ولكن من تنأين عنه غريب .

أو صادق بين قوم منافقين .

غربة الهمة : وهى غربة يشعر بها الإنسان لطلب الحق.

ومن هذا يتضح أن "ابن القيم" قد تناول عامل الاغتراب بالدراسة والبحث والتوضيح كأحد العوامل النفسية التى تعترى حياة الإنسان . ولهذا فقد سعى لتحديدها وتفسيرها[١] وتوضيحها وبيان أنواعها . وهو يرى كذلك الغربة قد تكون غربة عن المكان أو غربة عن الزمان أو غربة عن الأقوام .

الطمأنينة:

وهى احد العوامل النفسية التى كانت موضع اهتمام عند " ابن القيم"[٢] . حيث تناولها والبيان ، ولذلك نجده قد عرض لرأى "صاحب المنازل"[٣] فى الطمأنينة فيذكر تعريفه لها بأنها :- سكون يقويه أمن صحيح ، شبيه بالعيان . ثم يوضح "ابن القيم" الفرق بين الطمأنينة والسكون وذلك لبيان وتوضيح هذا المفهوم . فيرى أن الطمأنينة "إحساس بالراحة والهدوء النفسى لايفارق صاحبه " وهذا بخلاف السكينة التى يرى أنها "احساس بالراحة والهدوء النفسى يكون حينا بعد الحين " .

ويستمر "ابن القيم" فى بيان هذا المفهوم بضرب الأمثلة التى تلقى

---

(١) كتاب الأرواح ص ص (٤٠٧ : ٤١٠)

(٢) مدارك السالكين جـ (٢) ص ص (٥١٢ : ٥٢٠)

(٣) أبو اسماعيل الهروى ص (٣٩) .

مزيداً من الضوء على مفهوم الطمأنينة فيقول : "يقال اطمأن بالمكان والمنزل : إذا أقام به . وهو يرجع سبب حدوث هذه الطمأنينة إلى صحة هذا الأمن المقوى للسكون ، الشبيه بالعيان إلى انتفاء الظنون والأوهام إنتفاءً تاماً . الأمر الذى يجعل الإنسان يشاهد ما يطمئن به ، وبذلك ينتفى قلق قلبه ، فلا يضطرب أو يرتاب فيحدث بذلك الإحساس بالطمأنينة . أى أنها تحل فى قلب الإنسان نتيجة علم وخبرة بأسباب حدوثها ، واليقين بالحصول عليها بصورة دائمة ومستمرة . بينما تكون السكينة - كما سبق الإشارة إليها - ثبات القلب عند حدوث أوهجوم المخاوف عليه .

هذا ؛ ويلاحظ أن "ابن القيم " قد سعى لتحديد هذا المفهوم فيذكر أن الطمأنينة هى" سكون القلب إلى الشىء ، وعدم اضطرابه وقلقه " . وهو يرى أن الإنسان المؤمن لايمكن أن يحقق الإحساس بالطمأنينة إلا بذكر الله. فعندما يضطرب قلب المؤمن ، ويصاب بالقلق لاسبيل إلى حدوث الطمأنينة إلا بذكر الله ، ويكون ذلك بقراءة القرآن الكريم . حيث يتم عن طريق قراءة القرآن طمأنينة قلب المؤمن الذى يشكل أهمية بالغة فى مدى إيمان العبد ويقينه بالله حق اليقين . وعند حدوث اليقين ينتفى الشك الذى يحدث الاضطراب والقلق ، ويتحقق الإحساس بالطمأنينة .

ومما تقدم من بيان لمدى اهتمام "ابن القيم" بأحد العوامل النفسية التى كانت ولا تزال موضع اهتمام علماء النفس فى العصر الحديث وهو عامل الطمأنينة يتضح أنه قد أدرك قيمة هذا العامل فسعى لبيانه وتوضيحه، وجعله أحد المباحث الهامة فى كتابه - مدارج السالكين -

حيث بينه ووضحه عن طريق الفرق بينه وبين عامل السكينه الذى يعد من العوامل النفسية التى يحظى بها العبد المؤمن عند حدوث المصائب أو المكروه . فضلاً عن ذكر بعض وجهات نظر من سبقوه فى تناول هذا المفهوم وتحديده . وبالإضافة إلى تحديده له فقد بين المصدر الأساسى والأول الذى يمكن أن يعين العبد المؤمن على تحقيق أكبر قدر ممكن من الإحساس بالطمأنينة وهو قراءة القرآن الكريم الذى يزيل ما قد يعلق بنفس العبد من أسباب الشك التى تؤدى الى الإضطراب والقلق ، وبذلك يكون قد أسهم "ابن القيم " فى بيان وتوضيح هذا العامل وكيفية تحقيقه كى يحياه الإنسان المسلم وهو يتمتع بأكبر قدر ممكن من السواء النفسى وذلك عن طريق اليقين بالله الواحد الأحد .

القلق :

ويتناول "ابن القيم "[١] القلق كأحد المتغيرات النفسية التى تصيب الإنسان من حين لآخر؛ وهو عندما يتحدث عن هذا المتغير يشير إلى وجهة نظر صاحب المنازل فى القلق الذى يرى "أنه قوة الشوق مع التجرد عن الصبر " وعندما يتناول هذا المفهوم بالتوضيح والشرح يذكر أن صاحب المنازل قد رأى أن القلق يكون على ثلاث مستويات الأول: قلق يضيق الخلق ، أى يضيق خلق صاحبه على احتمال الأغيار ، فلا يبقى فيه اتساع لحلمهم . والمستوى الثانى : وهو القلق الذى يحدث بسبب بغض الخلق ، وهو ذلك القلق الذى يصيب الإنسان إذا تواجد فى وسط اجتماعى

---

(١) مدارك السالكين جـ (٣) ص ص (٥٩ : ٦٢)

مع وجود التنافر بينه وبين من يخالطهم فى هذا الوسط الإجتماعى

والمستوى الثالث : وهو ذلك القلق الذى يحدث نتيجة ذكر المحبوب ، وعندها يشعر الإنسان باللذة لأنه حتى وإن أدى إلى الموت فإنه يتلذذ به كما يتلذذ المسافر بذكر قومه على أهله وأحبابه .

كما يتناول تحديد مفهوم القلق ؛ فيعتبره "تجريد الشوق بإسقاط الصبر " ويرى أن القلق الذى يصيب الإنسان ، يقوى ويتزايد حتى يورث القلب حالة شبيهة بحالة الظمآن إلى الماء .

ومن استعراض وجهة نظر "ابن القيم "فى القلق وبيان مفهومه يتضح أن القلق من وجهة نظر الإسلام لا يعن أو لايصل إلى حد القلق المرضى . بل هو قلق صحيح . حيث يشير إلى القلق الذى يصيب المسلم ويؤدى إلى صحة إيمانه . لأن المسلم المتبع لمنهج الله سبحانه وتعالى لايقع فريسة لمثل أنواع القلق المرضى الذى يتحدث عنه علماء النفس وفق النظريات النفسية فى هذا العصر . ذلك لأن المنهج الإسلامى قد حدد الطرق السليمة التى تعين الإنسان المسلم على تخطى لحظات الإحساس والشعور بالقلق إلى حالة الاستقرار النفسى ،وخاصة من يلتزم التزاماً دقيقاً بأوامر الله ونواهيه .

الغيرة :

ويتناول "ابن القيم " الغيرة[١] كأحد المتغيرات النفسية التىتعتبر

---

(١) مدارك السالكين. جـ (٣) ص ص (٤٣ / ٥١) .

ذات أهميـــــة فيما يكون عليه الإنسان من السلوك السوى السليم الــذى يرضى عنه الله سبحانه وتعــالى لذلك اعتبرها منزلة شــريفة ، وعظيمــة جداً وأنها جليلة المقدار ويعتمد فى تحديدها على مفهوم "صاحب المنازل"[١] الذى يرى أن الغيرة "تعنى سقوط الاحتمال ضناً والضيق عن الصبر نفاسـة" وهو يعنى عجز الغيور عن احتمال ما يشغله عن محبوبه ويحجبه عنه ضناً به .أى بخلاً. ويشير فى الشق الثانى إلى ضيق الإنسان بالصبر عن محبوبـه ذلك لأنه يغالى فى حبه لمحبوبه ، حتى أنه ينافس من أجل الحصول عليـــه رغبة فيه ، ولهذا فهو شديد الاجتهاد والحرص لذلك .

هذا؛ ويتناول "ابن القيم " الحديث عن أنواع الغيرة :

(أ) غيرة العبد من نفسه على نفسه ؛ كغيرته من نفسه على قلبه ، ومــن تفرقته على جمعيته ،ومن إعراضــه علــى إقبالــه ، ومــن صفاتــه المذمومة على صفاته الممدوحة . وهذه هى خاصية النفس الشــريفة الذكية العلوية . وليس للنفس الدنيئة المهينة فيها نصيب . ويرى أنــه على قدر شرف النفس وعلو همتها تكون هذه الغيرة .

(ب) غيرة الحق تعالى على عبده .أى أن الله ســبحانه وتعالى قــد حــرر عبده فلا يجعله للخلق عبدا ولهذا اتخذه لنفسه عبدا .

(ج) غيرة العبد لربه لا عليه : فلا يجعل له فيه شركاء . أى لايجعــل شــيئاً من أعماله ، وأقواله ، وأحواله ، وأوقاته ، وأنفاسه لغير ربه ، وأنــه يغضب إذا كان لغير الله .

---

(١) أبو اسماعيل الهروى ص (٧٢) .

ومن هذا يبدو واضحاً أن "ابـن القيـم " يتنـاول مفهـوم الغـيرة فى الإسلام دون الحديث عن مفهوم الغـيرة كمـا يتحـدث عنـها علمـاء النفس المعاصرين ؛ وهى الغيرة المدمرة للإنسـان ولغـيره مـن النـاس. والغيرة فى الإسلام تتجه إلى محاولة الإنسـان لأن يكـون علـى أفضـل مستوى من العلاقـة بينـه وبيـن خالقـه ، وبذلـك يحسـن سـلوكه ، ويصدق فى كل ما يصـدر عنـه مـن أقـوال وأعمـال وأفعـال . وهنـا يصبح العبد المؤمن يغار على نفسه مـن الذلـل والخطـأ ، وعلـى دينـه مـن النقصـان ، وعلـى إخوانـه فـى الإسـلام . الأمـر الـذى يرقـى بالمجتمع الإسلامى أفـرادا وجماعـات .

الرضا :

ويتناول "ابن القيم "[١] هذا العـامل النفسى كأحد المتغيرات النفسـية التى تشكل أهمية فى حياة الإنسان إذا رضيت النفـس بمـا حصـل لـها . ويحدده " ابن القيم " بأنه " رجوع النفس إلى ربها . حيث لاترجع النفس إلا إذا كانت راضية بما نالته فيحصل لها الرضا ". أى أن الفرد يكون شـاعراً بالرضا حال استواء حالته من الغنى والفقر ، والراحة والتعب ، والعافيـة والسقم، والاستيطان ومفارقة الأوطان . ذلك لأنه مدام قد حدث هـذا فإنـه يعتبر مراد الرب . فعلى الإنسان ألا يسخط على وضعه ، وألا يطلـب غـير تلك الحالة التى أقامه الله فيها . أى رضا العبد باختيار الله له ، عن رضـاه باختياره لنفسه .

---

(١) مدارج السالكين جـ (٢) ص ص (١٧١ : ١٩٢).

وقد قام "ابن القيم " بعرض عدد من المفاهيم التى تحدد هذا المتغير النفسى منها ؛ عدم الاعتراض والسخط على حكم صدر على العبد . وسكون القلب إلى اختيار الله للعبد، والإعتقاد بأن هذا الاختيار هو الأفضل. ومنها - أيضاً - ارتفاع الجزع فى أى حكم كان ،واستقبال الأحكام بالفرح . كما يذكر رأى "يحيى بن معاذ " أن الرضا يكون على أربعة أصول فيما يعامل به العبد ربه وهى؛ "إن أعطيتنى قبلت ، وإن منعتنى رضيت ،وإن تركتنى عبدت ، وإن دعوتنى أجبت ". ويشير كذلك إلى تعريف "صاحب المنازل "[١] وهو " الوقوف الصادق " والذى يراد به الوقوف مع مراد الرب تبارك وتعالى من غير تردد فى ذلك ولا معارضة .

هذا؛ ويشير "ابن القيم " إلى أن " الرضا " كان موضع إهتمام علماء المسلمين،حيث أخذوا يبحثون عن حقيقة تكوينه ؛ أهو مكتسب ؟ .. أو خلقى طبيعى فى التكوين الإنسانى .

كما تناول "ابن القيم " الحديث عن الآثار المترتبة على الإحساس بالرضا. حيث اعتبره ليس نهاية المطاف إنما هو دافع لمزيد من الأعمال والأفعال التى من شأنها أن تحقق استمرارية الإحساس بالرضا ،وهوبذلك يؤكد على أن الرضا وسيلة الإنسان لتحقيق الأمن والاطمئنان ، وأن به تهدأ النفس ، ويطمئن القلب . ويعم إحساس الإنسان بالسرور . وهو يعتمد فى ذلك على مدى عمق الإيمان بالله سبحانه وتعالى ، وإلتزام الإنسان المسلم بعقيدته حق الالتزام . فإذا تم ذلك تحققت له حالة الأمن والاطمئنان

---

(١) أبو اسماعيل الهروى ص (٣٩) .

التى تمكنه من مواصلة الحياة بصورة إيجابية .

الثقة :

يعرض "ابن القيم " فى مؤلفه كتاب الأرواح[١] إلى الحديث عن أحد العوامل النفسية وهو الثقة التى اعتبرها علماء النفس المحدثون من أهم المتغيرات النفسية التى تسهم فى بناء الشخصية السوية . عندما تناولها بالتعريف فقال :" سكون يستند إلى أدلة ، وأمارات يسكن إليها القلب . كلما قويت تلك الأمارات قويت الثقة واستحكمت ، ولا سيما على كثرة التجارب . وصدق الفراسة " .

ومن هذا التعريف الذى ذكره "ابن القيم " يتضح أن الثقة لدى الإنسان تتولد بناء على إدراكات لديه تعضد مقدار تقييمه لذاته التى إذا ما كان لديها مقدار كبيرمن الثقة سكن قلب صاحبها وشعر بالهدوء والإستقرار حيال كثير من مواقف الحياة ونوائبها . كما أن لهذه الثقة أسباباً، فى مقدمتها كثرة تجارب الإنسان ، وما يكتسبه منها من خبرات تدل على مدى قوة ثقة الإنسان بنفسه . بالإضافة إلى مدى مالديه من مقدار الفراسة وصدقها التى تجعله أكثر إدراكاً لمدى هذه الثقة وقوتها .

الفراسة :

تناول "ابن القيم "[٢] هذا العامل بالدراسة والبحث على أساس أنه

---

(١) كتاب الأرواح ط (٤) ص (٤١٧).

(٢) مدارج السالكين جـ (٢) ص ص (٤٨٢ : ٤٩٥).

سمة أساسية من سمات المؤمن التى تميزه عن غيره من عباد الله ، ولـــهذا فقد سعى إلى معرفة وجهات نظر كثير من علماء المسلمين فى هذا العـــامل فأورد المسميات التى سميت بها الفراسة . حيث أشار إلى أن " ابن عبـــاس" أطلق على أصحاب الفراسة بأنهم الناظرون على حيـــن ســماهم " قتـــادة " المعتبرين ، بينما أطلق عليهم " مقاتل " المتفكرين .

ويذكر لنا " ابن القيم " وجـــهات نظـــر بعـــض علمـــاء المســـلمين الذين تناولوا عامل الفراســـة بالبحـــث والتعريـــف ، ومـــن بيـــن هـــؤلاء " أبوسعيد الخراز " الذى يرى أن صـــاحب الفراســـة قـــد أنعـــم الله بـــها عليه لعدم غفلته عن الحق عندما قال :"مـــن نظـــر بنـــور الفراســـة نظـــر بنور الـــحق ، وتكـــون مـــواد علمـــه مـــع الحـــق بـــلا ســـهو ، ولا غفلة . بل حكـــم حـــق جـــرى علـــى لســـان عبـــده . ويشـــير إلـــى رأى "الواسطى " الذى يرى أن الفراسة أنوار تلمـــع فـــى القلـــوب تمـــد العبـــد المؤمن بمعرفة السرائر وأن هذه المعرفة أمـــد الله بـــها عبـــده المؤمـــن فيكشف عن طريقها ضمير غـــيره مـــن النـــاس . عندمـــا قـــال :" إنـــها شعاع أنوار لمعت فـــى القلـــوب ، تمكـــن معرفـــة جملـــة الســـرائر فـــى الغيوب من غيب إلى غيب ، حتـــى يشـــهد الأشـــياء مـــن حيـــث أشـــهده الحق إياها ؛ فيتكلم عـــن ضمـــير الخلـــق". بينمـــا يعتـــبر" الوراقـــى " أن الفراسة هى " مكاشفة النفـــس ومعاينـــة الغيـــب، وهـــى مـــن مقومـــات الإيمان " كما عرفها "ابوجعفر الحداد" بأنـــها " أول خـــاطر بـــلا معـــارض فإن عارضه آخر من جنسه ؛ فهو خـــاطر أو حديـــث نفـــس" .

ويبلور "ابن القيم " وجهات نظر ما قبله في تحديد مفهوم الفراسة بأنها نعمة من الله توهب للعبد المؤمن فتنظر على معاني الغيب ، فتنطق بأسرار الخلق عندما قال :" هي أرواح تتقلب في الملكوت ؛ فتشرف على معاني الغيب ؛ فتنطق عن الخلق نطق مشاهدة لا نطق ظن وحسبان مؤكداً أن صاحب الفراسة يستطيع أن يدرك ويعرف المتكلم ، ويكمن ضميره من كلامه ، وأن ذلك أقرب من معرفته بسيماه ، وما في وجهه. على أساس أن دلالة الكلام على قصد قائله وضميره أظهر من السمات المرئيه . كما يشيرإلى أن الفراسة تتعلق بمصدرين من مصادر الإدراك الحسي، وهما النظر والسمع حيث يعتبران من أهم المصادر الحسيه للفراسة .

كما يسرد لنا "ابن القيم" وجهات نظر هؤلاء العلماء في أسباب حصول العبد على الفراسة وتميزه بها دون غيره من عباد الله. فيذكر أن "عمرو بن نجيد"قد حدد أسباب الفراسة عن طريق ملاحظته أحد المحدثين بها وهو"شاه الكرياني" واصفاً إياه بأنه كان حاد الفراسة لا يخطئ . وأن سبب ذلك غض بصره عن المحارم،وأنه أمسك نفسه عن الشهوات،وعمر باطنه بالمراقبه،وظاهره باتباع السنه ، وتعود أكل الحلال ، ولذلك لم تخطئ فراسته. واتفق "أبوعثمان الهروي" مع "عمروبن نجيد" في صحة هذه الأسباب التي تؤدي إلى الفراسة .

وتتحقق الفراسة الصادقة للمؤمن الذي اتسم قلبه بالطهاره

والنقاء،والصفاء،ونزاهة قلبه عن ارتكاب الادناس . فضلاً عن السبب الأساسي وهو القرب من الله ،فإذا تحقق له ذلك،فإنه ينظر بنور اللهوصدق رسول الله .ﷺاتقوا فراسة المؤمن فهو ينظر بنور الله"ويضاف إلى ما تقدم جودة ذهن المتفرس،وحسن فطنته،ولذلك تظهر للعبد الذى يتميز بالفراسة علامات وأدلة على قدرته على التفوس .

ويتلقى المتفرس معلوماته ويدرك بياناته عن طريق كل من عينيه ؛ حيث ينظر العلامات والسمات وأذنيه حيث يسمع الكلام وتصريحه ، وتعريضه ، ومفهومه ، وفحواه ، وإشاراته ، ولحنه ، وإيمانه . وقلبه . حيث يعبر عن طريقه من المنظور والمسموع إلى باطن المتحدث فيستدل على ما أخفاه في داخله..

هذا ؛ وقد حدثنا التاريخ عن نماذج من الشخصيات الإسلامية البارزة التى اشتهرت بالفراسة فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذى رأى سارية "بنهاوند" من أراضى فارس فناداه " ياسارية الجبل " . وهذا "عثمان بن عفان " يدخل عليه رجل من الصحابة وقد رأى امرأة فى الطريق فتأمل محاسنها فقال " عثمان "يدخل علىّ أحدكم وأثر الزنا فى عينيه .فيقال : "أوحى بعد رسول الله ﷺ فقال "عثمان":لا ولكن تبصرة وبرهان وفراسة صادقة .

ومما تقدم من عرض لمفهوم الفراسة ووجهات نظر العلماء فيها ، وبيان أسباب حصول العبد عليها ، ومعرفة مصادرها

الأساسية ، وكيف يمكـــن أن تحـــدث عمليـــة الفراســـة ، وذكـــر بعـــض الأمثلة للمتفرسين الذين شـــهد لـــهم التـــاريخ بفراســـتهم ، فإنـــه يمكـــن القول بأن الفراسة عملية نفسية إدراكية تتـــأتى للعبـــد المؤمـــن الـــذى يقـــترب مـــن الله بأقـــواله وأفعـــاله فتصفـــو نفســـه . ويتقـــد ذهنـــه ، وتصان فطرته السليمة النقية ، وعند ذلـــك يقـــذف الله ســـبحانه وتعـــالى النور فى قلب المؤمن فيخطر له الحـــدث، أو الأمـــر ، أو الشـــىء وينفـــذ إلى العين فترى مالا يراها غيرها ، فيكون كمـــا خطـــر لـــه فـــى نفســـه ، وأدركه عقله ، وصدقه قلبـــه .

الانفعالات

الحزن :

كما يتناول "ابن قيم الجوزية" الحزن ببيان وجهات نظر الآخرين في مفهومه؛ فيذكر رأي "أبي العباس" بأنه "انخلاع[١] عن السرور،وملازمة الكآبة لتأسف على ما فات "٠ وهو بذلك يعتبر أن الحزن حالة انفعالية تنتاب الإنسان، وتؤثر في القلب على ما يستقبل من الأحداث ٠ ويترتب عليه ضعف في القلب، ووهن في العزم، واضرار بالإرادة٠ ولذلك يعتبره "ابن القيم " حالة مرضية تصيب القلب وتمنعه من نهوضه وسيره ٠

كما أشار الى أن هذه الحالة الانفعالية التي تصيب الإنسان في حالتين : الأولى: لتقصير الإنسان في عبوديته لله ٠ الثانية : تورطه في مخالفة الله ، ومعصيته ، وضياع أيامه وأوقاته ٠٠٠ وهو في الوقت نفسه -الحزن- في هاتين الحالتين دليل على "صحة إيمان المؤمن "٠ هذا؛ ويشير إلى أن الحزن[٢] "موقف " غير مُسَيِّر ، ولا مصلحة فيه للقلب، وأنه أحب شيء إلى الشيطان : لأنه " يقطعه عن سيره ، ويوقفه عن سلوكه "ولذلك اعتبره مصيبة من المصائب إذا حل بالإنسان ٠ ولهذا يرى "ابن القيم "أن الحزن ليس بمطلوب ، ولا مقصود ، ولا فائدة فيه ٠ ومن أجل هذا يجب أن يستعيذ منه الإنسان ٠ وقد يكون محنة وابتلاء من الله

---

(١) طريق الهجرتين ص ص (٣٩٣ / ٤٩٥) .

(٢) مدارج السالكين جـ (١) ص (٥٠٦)

سبحانه وتعالى للعبد المؤمن ليتبين مدى قوة ايمانه ٠

ويصنفه "ابن القيم"[١] الى ثلاثة أنواع (أ) حزن أورثه خوف الانقطاع (ب) حزن يذهب سرور الذوق ؛ وهوحزن ظلم الجهل (ج) حزن يبعثه وحشة التفرق ؛ وهو تفرق القلب عن الله عز وجل ٠

ومما تقدم تتضح وجهة نظر"ابن القيم" فى الحزن كحالة نفسية تنتاب الإنسان؛ وهو يعرضها من وجهة نظرالإسلام ويرى أن الحزن لايفيد الإنسان ، بل إنه إذا تملك منه يستفيد منه الشيطان ليحول بينه وبين مسيرته الطبيعية السليمة، ليوقعه فى الخطأ ، ويجعله يحيد عن الطريق القويم .لذلك يوصى الإسلام الإنسان المسلم من الاستعاذة منه، والحرص على عدم الوقوع فيه ٠ كما يرى "ابن القيم" أن الإنسان يستطيع الوقاية منه إذا ما ظل قلبه وعقله مرتبطا ارتباطاً قوياً بالله ومنهجه ٠

الفرح :

يتناول "ابن القيم"[٢] أحد العوامل النفسية التى يتسم بها الإنسان وهو عامل الفرح الذى يعتبر بعداً انفعالياً مميزا للإنسان عن غيره من الكائنات الحية الأخرى ٠ويبدأ حديثه عن هذا العامل بتعريفه. عندما قال :"إنه لذة تقع فى القلب بإدراك المحبوب ،ونيل المشتهى ؛ ويتولد من ادراكه حالة تسمى بالفرح"٠ كما يعرفه بضده وهو الحزن حيث يذكر" أن الفرح ضد الحزن "٠

---

(١) مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (١٦١ / ١٦٤)

(٢) مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (١٥٦ : ١٥٩)

وعندما نتأمل هذا التعريف يتضح أن الفرح من وجهة نظر"ابن القيم" إحساس يقع بالقلب عند إدراك الإنسان من يحب ، وتحقيق ما يصبو إليه من لقاء المحبوب . حيث يشعر بحالة انفعالية تجعله يدرك قدرا من الراحة والاستقرار النفسى . ويرى:ابن القيم: أن الفرح أعلىأنواع أحاسيس القلب حيث يُشعر الفرح "بالنعيم ولذته" .

ويذ كر"ابن القيم" أن الفرح مرتبط بمدى رغبة ومحبة الإنسان لمحبوبه ، وذلك لأنه يعتبر فرح العبد بمن يحب دليلا على مدى تعظيمه ، ومحبته له ،وتفضيله وإيثاره على غيره. والعكس على خلاف هذا الأمر ، فإن من ليس له رغبة فى شىء ما أو إنسان ما فإن حصوله على هذا الشىء ، أو لقاءه لهذا الإنسان لا يؤثر على مشاعره وأحاسيسه. كما أنه لا يحزن لفواته أو عدم الالتقاء به. إن كان إنساناً .

هذا ؛ ويرى "ابن القيم" أن هذه الحالة الانفعالية "الفرح" التى تنتاب الإنسان حين لقاء المحبوب أو حدوث ماكان يتمنى أن يحدث - يعتبر أعلى درجة من درجات الاستقرار النفسى - حيث اعتبر أن الفرح أعلى درجة من الرضا على أساس "أن الرضا طمأنينة وسكون وانشراح وأن الفرح لذة وبهجة وسرور ".

وفى تناول "ابن القيم " لهذا العامل - الفرح - يربطه بالجانب الدينى؛ وهو الجانب الهام الذى يشكل ضرورة أساسية فى حياة الإنسان لتحقيق أكبر قدر ممكن من السواء النفسى . والذى يبدو أكثر وضوحا فى مدىعلاقة الإنسان بخالقه . حيث لا يستطيع الإنسان أن يدرك ويحقق

مستوى أفضل من الصحة النفسية إلا إذا كانت علاقته بخالقه تسير وفق أوامره ونواهيه .

السرور :

من يتتبع أفكار "ابن القيم "[١] فى محاولته لبيان الفرق بين الكثير من العوامل النفسية ذات الارتباط بالجانب الانفعالى يجد أنه قد اعتبر "السرور"أحد هذه العوامل الهامة التى يتميز بها الإنسان . وإن بدا أنه ليس هناك فرق بين السرور والفرح . إلا أنه إذا دققنا النظر فيما أورده "ابن القيم" عند حديثه عنهما يتضح أن السرور مستوى من الحالة الانفعالية التى تغمر الإنسان بهذا الإحساس دون أن يشوبه حزن أو كدر . ولذا يختلف عن مستوى الفرح .

وقد سمى "السرور" بهذا الاسم لبيان أثره على أسارير وجه الإنسان وقد تناوله "صاحب المنازل" [٢] بالحديث وبيان معناه فقد رأى أنه "اسم لاستبشار جامع ويعتبره أصفى من الفرح على اعتبار أن الأفراح ربما شابها الأحزان" . إلا إننا نجد أن "ابن القيم" يرى أن الفرح أعلى من السرور أى أن معناه أكمل من معنى السرور .

ومن هذا ندرك أن علماء المسلمين قد تنبهوا لكثير من العوامل النفسية التى تنتاب الإنسان من حين إلى آخر تبعا لتغير ظروف الحياة وأحداثها ومواقفها، وتبعا لمدى عمق إيمانه وزيادته

---

(٢)مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (١٥٩ : ١٦٩)

(٢) منازل السائرين ص (٨٤)

أونقصانه . ولهذا كان تناولهم لكل من الفــرح و الســرور علــى أســاس أنـهما عاملان نفسيان يختلف مستوى كل منــهما عــن الآخــر.

الشـوق :

ويتناوله "ابن القيم" [١]الشوق كحالة انفعالية ، وأثر من آثار المحبــة وحكم من أحكامها . ويشير إلى عدد من التعريفات الخاصة بهذا الانفعــال ؛ فيذكر قول "يحيى بن معاذ" الذى يرى أن الشوق هو "فطام الجــوارح عــن الشهوات " وقول "صاحب المنازل "[٢] الذى يعـتبره "هبوب القلــب علــى غائب .. لحدوث الراحة " ويعلق "ابن القيم "على هذا بأن الشوق مظــهر إنسانى يدفع الإنسان إلى حدوث الراحة وتحقيق العافية للإنسان . ويضيــف إلى قول " صاحب المنازل " ما يلى: ارتياح القلوب بالوجد ، ومحبة اللقــاء فى القرب "وهذا يعنى أن حالة الشوق وإن كانت من أهم مظاهرها الإحساس بالقلق والاضطراب على المحبوب ، وبيان الرغبــة فــى لقائــه إلا أنــها أحاسيس تخفض لهيب الفراق بين المحب والمحبوب أملاً فى لقائــه الــذى بدوره يزيل القلق والاضطراب النفسى عند إطفــاء اللــهيب الناشــئ عــن أحاسيس المحبين بالمسافات السيكولوجية بينهم وبين من يحبون . حيث إن الشوق يسكن باللقاء . بينما يشير الاشتياق إلى عدم إزالته بحدوث اللقــاء بين المحبين .

كما يذكر "ابن القيم" إن من أهم مظاهر الشــوق التــى تبــدو علــى

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٥٢ : ٦٠)

(٢) أبو اسماعيل الهروى ص (٧٣)

المحبين ؛ سفر قلوبهم إلى المحبوب فى كل حال ، ورغبة القلوب وحاجتها إلى لقاء المحبوب ، وهبوب القلب إلى لقاء الغائب بصفة دائمة ومستمرة . ويشير إلى أن الشوق أقل من المحبة لأنه يتولد عنها ، وأن مدى قوة الشوق تتوقف على مدى قدر المحبة ووضعها لدى المحب .

وحديث"ابن القيم" عن الشوق كأحد الحالات الانفعالية التى تميز الإنسان عن غيره من الكائنات الحية ينصب على شوق المؤمن إلى لقاء خالقه . أى أنه يتناوله من وجهة نظر الإسلام من خلال بيان ما ينبغى أن تكون عليه طبيعة العلاقة بين الإنسان المسلم الحق وبين خالقه سبحانه وتعالى .

الخشوع :

ومن يقرأ "لابن القيم"[1] فى عديد من مؤلفاته يتضح أنه قد تناول كثيرا من العوامل النفسية التى تميز الإنسان عن غيره من مخلوقات الله ؛ومن بين هذه العوامل الخشوع ، فيتناوله بعرض المفهوم اللغوى لهذا العامل ؛ فيذكر أن " الخشوع يعنى فى اللغة الانخفاض والذل والسكون " ثم يذكر بعد ذلك المعنى الاصطلاحى فيقول : "الخشوع هو قيام القلب بين يدى الرب بالخضوع والذل". ويؤكد على أن محل الخشوع قلب الإنسان وأن آثاره وعلاماته تظهر على جوارحه . أى أنه إذا خشع الإنسان لربه بدا ذلك فى كل ما يصدر عنه من تصرفات وأفعال تنبئ عما يكنه قلبه

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٥٢٠ : ٥٢٢)

من هذا الخشوع والتذلل لـــرب العـــالمين .

ومن هذا يبدو أن الخشوع حالة انفعالية تنتاب الإنسان ، وتظهر عليه حال وقوفه فى موقف أمـــام من كشـــف باطـــنه ، وعـــرف خبـــايـــاه، فـــتراه منضبط النفس أمامه ، ويظهر ذلك كله فيما يصدره الإنسان مـــن علامات الخضوع والانكسار والذلة .

وعندما يتناول " ابن القيم " هذا العامل بالشرح والتوضيح ، فإنـــه يدلل عليه ويثبت وجوده عن طريق علاقة العبد بخالقه ؛ فيذكر أنه عبـــارة عن " قيام القلب بين يدي الرب بالخضوع والذل ...". وقد أشار إليه كثـــير من علماء المسلمين فقد عرف " الجنيد " الخشوع بأنه " تذلل القلوب لعـــلام الغيوب "، وعرفه غيره بأنه " الانقياد للحق ". ويعلـــق عليه "ابن القيـــم " بأن هذا الانقـــياد من موجبـــات الخشـــوع . كما يذكـــر تنـــاول " صـــاحب المنازل "[١] لهذا المفهوم الذى قال فيه بأنه " خمود فى النفـــس ، وهمـــود الطباع لمتعاظم، أو مفزع ".

ويتضح مما تقدم أن الخشوع الذى يكمن فى قلب العبد سببه الجمـــع بين التعظيم والمحبة والذل والانكسار ، ويتمثل كل ذلك فـــى انقيـــاد العبـــد لخالقه عز وجل مع اظهار الضعف وهذا عن طريق طاعة أوامره ، واجتناب نواهيه ظاهره وباطنه . ولا يتحقق ذلك الا بامتلاء القلب بأكبر قـــدر مـــن التعظيم والمحبة للواحد القهار . وإنه كلما كـــان الإنســـان المســـلم أشـــد استحضاراً للخوف من الله كان أشد خشوعاً ، ويبدو ذلك فى كل ما يصـــدر

---

(١) أبو اسماعيل الهروى ص (٢١)

عنه من أقوال وأفعال وأعمال حال عبادة الله عز وجل ، وحال تعامله مع عباد الله.

ويعد هذا العامل النفسى الذى يميز الإنسان عن غيره من المخلوقات اضافة جديدة لكثير من العوامل ذات الإرتباط بالجانب الانفعالى. حيث يلاحظ أن هذا العامل لم يكن موضع اهتمام علماء النفس المحدثين فى دراستهم النظرية أو بحوثهم التجريبية .

الوجل :

ويضيف " ابن القيم " إلى العوامل الانفعالية عاملا آخر هو عامل "الوجل "[١] الذى يعرفه بأنه "رجفان القلب ، وانصداعه لذكر من يخاف سلطانه وعقوبته أو لرؤيته ". ويشير هذا التعريف إلى إدراك "ابن القيم " لكثير من الحالات الانفعالية التى تنتاب الإنسان فى مختلف مواقف حياته وخاصة عند حديثه عن علاقة الإنسان المؤمن بخالقه سبحانه وتعالى . حيث يذكر أن الإنسان المؤمن تنتابه حالة الوجل التى تبدو أكثر ما تبدو فى اضطراب القلب ورجفانه حال ذكر أو رؤية من له سلطان عليه ، ومن له تأثير بالغ الشدة على مستقبله . ومن أجل ذلك فإن العبد المؤمن الذى يعلم علم اليقين أن ناصيته ، ومآله فى الآخرة بيد خالقه الواحد الأحد يكون أشد إظهاراً لحالة الوجل من غيره من العباد حال سماع أو ذكر سلطان خالقه .

الإشفاق :[٢]

وهو حالة انفعالية تحدث للإنسان فى مواقف معينة يشعر فيها بدرجة

---

(١) مدارك السالكين جـ (١) ص (٥١٣)

(٢) مدارك السالكين جـ (١) ص (٥١٨/٥١٩)

من الخوف على من يخاف عليه. لذلك فقد عرفه "ابن القيم " بأنـــه "رقـة الخوف ؛ وهو خوف مشوب برحمة من الخائف لمن يخاف عليه " . وهــذا يعنى أن الإشفاق هو خوف مقرون بقدر من الرحمة ؛ كخوف الإنسان علـى عمله يوم الحساب ، أو من ضياعه من ارتكاب المعاصى .

الحياء :

والمتتبع لاهتمامات "ابن القيم " فى مؤلفاته ؛ وخاصة كتاب " مـدارج السالكين " يجد أنه قد كتب عن حالة انفعالية أخرى يتميز بها الإنسان عـن غيره من مخلوقات الله . فيذكر أن الحياء"[1] حالة انفعاليـــة يتسـم بـها الأشراف من الناس ، والكرماء منهم ". وأن هذا الحياء يبدو أكثر ما يبـدو عند الإنسان حال إدراك العبد أن الله بصير بالعباد ، ولذلك يستدل عليه مـن مراقبه الله ، وحضـور القلب مع خالقـه سـبحانه وتعالى ، والخوف أينما كان . ولهـذا اعـتبر أن الخوف وازعه ؛ لأن المسـتحى مـراع جـانبى ربه، وملاحظه عظمته .

الخوف :

تناول "ابن القيم "[2] الخوف بالدراسة والبحث حيث يتعرض لوجـهات نظر علماء المسلمين فى هذا المفهـوم ؛ فيذكـر "صاحب[3] المنازل" بأنــه "الانخلاع من طمأنينة الأمن لمطاعة الخبر " . ويعلق على ذلك موضحـا أن

---

(١)مدارك السالكين جـ (٢) ص (١٦٥)

(٢)مدارج السالكين جـ (١) ص ص (٥١٣ : ٥١٥)

(٣) أبو اسماعيل الهروى ص (٢٠)

الخوف سكون الأمن باستحضار ماأخبره الله به من الوعد والوعيد . وهـو بذلك يعنى أن الخوف حالة انفعالية تحدث للإنسان علىأساس العلم بشى ء ما يحدث شعوراً بالخوف . ويشير إلى تعريف "ابن[١] العباس " الذى يـرى أن الخوف "انخلاع عن طمأنينة الأمن ، والتيقظ لنداء الوعيد ، والحذر مـن سطوة العقاب " ولذلك يرى أنه يوجب القبض واليقظة والحذر. كما يعتـبره شرطاً من شروط الإيمان بالله الواحد الأحد.

و يذكر "ابن القيم" أن الخوف عبارة عن توقع العقوبة على مجـارى الأنفاس وأنه يبدو أكثر وضوحاً فى حركة من يرى العدو أو السيل فيـأتى بسلوك الهرب دليلا على شدة الخوف . كما أنه يبدو فى حركـة اضطـراب القلب حالة تذكر مصدر الخوف أو إدراك سببه . حيث إن حركة إضطـراب القلب تعنى استشعاره بحلول مكروه أو ضرر . الأمر الذى يدفـع الإنسـان إلىالهروب خوفاً من وقوعه . وهذا يشير إلى أن الخوف مسبوق بالشـعور والعلم . ولذلك يرى "ابن القيم " أن الخوف ليس مقصوداً لذاتـه بـل إنـه مقصود لغيره . أى أنه وسيلة تعين الإنسان على تفادى وقـوع خطـر أو مكـروه أو ضـرر عليه ولذلـك فإنه يـزول بزوال سـبب الخـوف أو مصدره .

ويشير "ابن القيم " إلى وجود علاقة بين "الخوف"[٢] وكل من "الوجـل" ، و " الخشية " ، و "الرهبه" ، و " الهيبة" . ويرى أنها ألفـاظ تعـبر عـن

---

(١) طريق الهجرتين ص ص (٣٩٨ : ٤١٦)

(٢) مدارج السالكين جـ (٣) ص ص (٥١١ : ٥١٣)

انفعالات متقاربة ، إلا أنها ليست مترادفة ، وخاصـة "الهيبـة " . هـذا؛ ويعتبر "ابن القيم" أن الخوف وسيلة للحفاظ على صحة القلب بنـاء علـى وجهةنظر أحد العلماء المسلمين -"أبو سليمان"- الذى يرى أن، مـن أهـم وظائف الخوف فى حياة الإنسان الحفاظ على صحة وسلامة القلـب عندمـا ذكر "أنه إذا ما فارق الخوف قلباً إلا خرب " ، وهذا ما أكده كل مـن "أبـى سفيان " فى قوله:" إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشبهات منـها ، وطرد الدنيا عنها " و " "ذى النون " الذى يرى :" أن الناس على الطـريق مالم يزل عنهم الخوف ، فإذا زال عنهم الخوف ضلوا الطريق ".

ويرى أن الخوف المحمود هو الذى يحول بين صاحبه وبين محـارم الله عز وجل وإذا تجاوز ذلك قد يؤدى إلى حالة من اليأس والقنوط . ويشير إلى قول " أبى عثمان " الذى يحدد مظاهر الخوف المحمود " صدق الخـوف هو الورع عن الآثام ظاهرًا وباطناً" ويذكر أن الخـوف متعلـق بـالمكروه المحذور وقوعه ، والسبب والطريق المفضى إليه . ولذلك يختلـف مقـدار الخوف باختلاف إدراك الإنسان وشعوره بالسبب الذي يخيفه ،وكذلك بقـدر المخوف يكون خوف الإنسان .

ومما تقدم يتضح أن "ابن القيم" قد اهتـم بـالخوف كـأحد العوامـل النفسية التى تشكل أهمية فى حياة الإنسان وآخرته، ولذلك نجده قد حـاول بيان مفهومه وإثبات وجوده ، من خلال وجهات نظـر علمـاء الإسـلام ، مضيفا إلى ذلك وجهة نظره الشخصية فى هذا العامل . كما بين أهميته فـى استمرارية حياة الإنسان بشكل سوى سليم ، وضرورته كأساس يعتمد عليـه الإنسان المؤمن للتطلع إلى حياة أفضل فى الآخرة . فضلاً عـن محاولاتـه

تحديد وظيفة الخوف الأساسية فى حياة الإنسان مدعما وجهة نظره فيما يرى من أهمية الخوف وضرورته ومايقوم به من وظائف أساسية تحمى حياة الإنسان المؤمن معتمدا فى ذلك على آراء من سبقوه فى تناول هذا العامل بالدراسة والبحث .

الخشية :

ويبين "ابن[١] القيم" هذه الحالة الانفعالية التى تنتاب الإنسان المسلم عن طريق بيان الفرق بينها وبين "الخوف" . حيث يشير الى أن الخشية حالة انفعالية أخص من الخوف ، وأنها تنتاب العلماء أكثر من العامة لأنهم أكثر معرفة بالله الواحد الأحد . وعرفها "ابن القيم" بأنها حالة "سكون وقراره"..كما أنها عبارة عن خوف مقرون بمعرفة ولذلك نلاحظ أنها أكثر التصاقا بالعلماء العارفين .

ولهذا نجد أن "الخشية" التى تبدو على صاحبها يكون مصدرها معرفة العبد بكثير من المعلومات عن خالقه تبارك وتعالى؛ هذه المعرفة تجعل صاحبها فى حالة الخشية التى تتضح فى كل ما يصدر عنه من تصرفات حال إقباله على خالقه ،وتعامله بأوامره ، وامتناعه عن نواهيه. وبصورة عامة حال تعامله مع غيره من عباد الله .

ويرى "ابن القيم" أن الخشية التى تنتاب العبد المؤمن تحصل وتتم بالعلم والمعرفة ،ولايمكن أن تنتاب الإنسان هذه الحالة إلا إذا

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص (٥١٣).

كان على دراية وخبرة ومعرفة بالطرف الآخر الذى يخشاه . ولذلك قيل فى الفرق بين الخوف والخشية ؛ بأن الخوف حركة انفعالية تبدو فيما يصدر عن الإنسان من سلوك حال رؤية شىء يدعو للهرب منه . بينما تكون الخشية حالة انفعالية خاصة تنتاب العبد المؤمن فى كثير من المواقف الحياتية فتجعله فى حالة من "انجماع وانقباض وسكون" وتدفعه: لأن يسلك سلوكاً معيناً ومحدوداً وخاصاً ، يتعجب منه العامة من الناس حالة حدوثه .

وهذا العامل -أيضا- يعتبر إضافة جديدة يضيفها العلماء المسلمون إلى بقية العوامل ذات الارتباط بالجانب الانفعالى لدى الإنسان . كما أنه يبين مدى اهتمام هؤلاء العلماء بالإنسان وما يصدر عنه من أقوال وأفعال وأعمال تشير إلى ارتباطه بالجانب الدينى .

الهيبة :

ويضيف "ابن القيم" حالة انفعالية أخرى إلى جانب الحالات الانفعالية التى تنتاب الإنسان فى حياتة ؛ وهى الهيبة التى يعرفها بأنها(١): "خوف مقارن للتعظيم والإجلال ، وأكثر ما تكون مع المحبة ،والمعرفة ، والإجلال ". أى أن الهيبة عبارة عن إحساس بالخوف مقرون بالحب بناء على مقدار معرفة الإنسان وتعظيمه وإجلالة لمن يهابة .

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص (٥١٣)

ويرى : " ابن القيم" أن تلك الحالة الانفعالية - الهيبة- تبدو أكثر ما تبدو فى حالة مناجاة العبد لربه ، وتضرعه بين يديه ، واستعطافه، والثناء عليه بآلائه، وأسمائه ، وأوصافه . ويتوقف مقدار الهيبة على مدى إدراك العبد لله، فكلما أدرك العبد جلاله ، وعظمته وقدرة خالقة كان مقدار هيبتة. وقد صنفها تحت اسم "هيبة الجلال" .

ومن هذا يتضح أن "ابن القيم" قد رصد حالة انفعالية للعبد المسلم تنتابه حالة معرفة وتعظيم وإجلال لشخصية معينة لها من الهيبة والاحترام والتقدير والإجلال فى نفسه ما يدعو إلى الإحساس بهذا الانفعال حال الوقوف أو الحديث معه . وإن كان "ابن القيم" قد أوضح هذه الحالة على العبد المؤمن ومن وجهة نظره التى تعتمد أساسا على المفهوم الإسلامى حال إدراك هذا العبد لخالقه الواحد الأحد .

هذا، وقد فرق "ابن القيم" بين ثلاث حالات من الإنفعال التى ذكرها وهى "الخوف" الذى يعتبره حالة انفعالية لعامة المؤمنين وأن "الخشية" للعلماء والعارفين، وأن "الهيبة" للمحبين .

الدوافـع

وقد ذكر "ابن القيم" عددا من العوامل النفسية التى يمكـن تصنيفـها تحت الدوافع ؛ ومن هذه العوامل "الرهبة"[١] : التى يعرفها بأنها "الإمعـان فى الهرب من المكروه " .وهذا يعنى أن الرهبة عامل نفسى يدفع الفرد إلـى سلوك الهرب مما قد يصيبه من أذى أو مكروه يتوقع حدوثـه .ويـرى أن الرهبة تعتبر عاملا يمثل الضد لعامل آخر وهو "الرغبة"[٢] التى عرفها بأنها "سفر القلب فى طلب المرغوب فيه ". أى أن الرغبة عامل نفسى يدفع الفرد حالة حدوثها إلى أن يسعى بكل ما يملك من وسائل وأساليب سالكا مختلـف أنواع الدروب بهدف تحقيق رغبته .

هذا ؛ ويستمر "ابن القيم" فى توضيح مفهوم الرغبـة ، وذلـك عـن طريق بيان الفرق بينها وبين عامل نفسى آخر وهو الرجاء :-حيث يشـير إلى أن الرجاء يتمثل فيما يظهر من الإنسان من أنماط السلوك التـى تعلـن عن طمعه . بينما تبدو الرغبه فيما يصدر عن الإنسان من أنواع السـلوك التى تعلن عن طلبه .

ولذلك نجد أن "ابن القيم" يؤكـد علـى أن الرغبـه كدافـع نفسـى تختلف عن الرجاء . وهو يعتمـد فـى بيـان ذلـك علـى مـاورد عنـد "صاحب[٣] المنازل " من أن الرغبة حالة نفسـية تنتـاب الفـرد وتدفعـه

---

(١)مدارج السالكين جـ (١) ص (٥١٢)

(٢)مدارج السالكين جـ (٥) ص (٥٥/٥٦)

(٣) أبو اسماعيل الهروى ص (٢٧)

لإصدار أنماط من السلوك تعلن طلب مـــراده وتحقيـق رغبتــه . ولذلــك فانه يرى أن الرغبه تاليه لحاله الرجـاء وتتولـد عنــها .ولــهذا نلاحـظ أن الذى تنتابه الرغبه يسلك سلوك من يســعى لتحقيـق طلبــه .

ومن هذا يفهم أن "ابن القيم" قد اهتــم ببعـض العوامـل النفسـية التى تكمن وراء كثير من أنماط السلوك التى تصـدر عـن الإنسـان فـى مختلف مواقف حياتــه . الأمـر الـذى جعلـه يعتـبر أن الرهبـة حالـة نفسية تدفع الإنسان إلى أن يصدر سلوكا يعلـــن عـن هروبــه ممـا قـد يحدث ويلحق به الضرر ٠ وأن الرجاء حالة ثانيـــة تدفـع الإنســان الـى إصدار أنواع من السلوك يشير إلى طمعه بينمـا تدفـع الرغبـة صاحبـها لأن يأتى بالأفعال التى تمكنه من تحقيق طلبــه وإشـباع رغبتــه .

مجالات نفسية أخرى

التفسير :

ومن يتتبع كتابات " ابن[١] القيم " يجد أنه قد تعرض لعملية تفسير الأحلام ، حيث يرى أن ظهور الثياب فى المنام يشير إلى القلب عندما ذكر "تدل ثياب المرء فى المنام على قلبه ". ويؤكد صحة تفسيره لذلك بأن الله سبحانه وتعالى قد نهى عن لباس الحرير ... لما له من تأثير فى القلب وعلى هيئة الإنسان التى تتنافى مع إحساسه بالعبودية والخشوع لله .

ويذكر لنا موقف أهل البصائر من هذا الأمر .عندما قال : "كما أن أهل البصائر يدركون تأثير الثياب على القلب والنفس ويعرفون دلالته على نوعيتهما؛ نظافتها ودنسها، ورائحتها ، وبهجتها تدل على قلب صاحبها ... حتى أنهم يدركون ، ويعرفون الإنسان الخير من الشرير ، والبر من الفاجر من ثوبه" .

العلاج النفسى :

كان لموضع العلاج النفسى عند " ابن القيم " اهتمام شديد ، حيث تناوله بشئ من التوضيح والتفصيل وعرض لكثير من الحالات النفسية التى قد تنتاب الإنسان فى حياته ؛ فقد تحدَّث عن كيفية التغلب على حالات الوسوسة[٢] التى عرفها بأنها "محاولة الشيطان مع الإنسان لأن يكذب بالحق "،ويرى أن الإنسان إذا ما أصابته هذه الحالة فإنه يجب عليه

---

(١) مدارج السالكين جـ (١) ص (٢١)

(٢) زاد الميعاد جـ (٢) ص (٣٥)

الإستعاذة بالله والاستغفار ، والتفل عن اليسار ثلاثاً وأن يقرأ الإنسان قول الله تعالى[١] :" هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم " أو أن يقرأ[٢] " وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه هو السميع العليم"[٣] .

كما تناول كذلك حالة الغضب[٤] التيتنتاب الإنسان في كثير من مواقف حياته ،وبين كيفية التغلب عليها ؛ وقد أشار إلى أن الإنسان يستطيع أن يطفئ جمرة غضبه بالوضوء ، والقعود إن كان قائما ، والاضطجاع إن كان قاعداً والاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم . هذا وقد أكد على أثر الصلاة والوقوف بين يدى الله فى عملية إزالة حالة الغضب.

وأشار "ابن القيم" إلى أن الإنسان كثيرا ما ينتابه حالات الكرب والهم والحزن والغم [٥] ، وبين كيفية التغلب على الحالات النفسية التى تصيب الإنسان من حين إلى آخر فى حياته ، حيث ذكر أنه إذا أدرك القلب حقيقة الربوبية لله عز وجل ، وعلم الإنسان ذلك ، فإنه يحصل على الشعور بالابتهاج والسرور الذى بهما يدفع إحساس آلام الكرب والهم والحزن والغم. ثم يذكر لنا قيمة الإحساس بالراحة والهدوء ، بعد إزالة الكرب والهم والغم والحزن ، وأثر ذلك على مستوى حالته الصحية الجسمية والنفسية .

---

(١) سورة الحديد آية (٣) .

(٢) سورة الحديد آية (٣) .

(٣) سورة الأعراف آية (٢٠٠)

(٤) زاد الميعاد جـ (٢) ص (٣٦ : ٣٥)

(٥) زاد الميعاد جـ (٢) ص ص (١٥٣ : ١٥٤)

عندما قال:" إننا نرى المريض إذا ورد عليه ما يسره ويفرحه، ويقوى نفسه، كيف تقوى الطبيعة على دفع المرض الحسى ..." .

وقد أشار إلى أهمية التزام الإنسان بذكر الله سبحانه وتعالى ، وخاصة " ياحى يا قيوم برحمتك أستغيث " على أساس أن صفة "القيومية" متضمنة لجميع صفات الأفعال . الأمر الذى يجعل لها قوة ، فإذا دعا بها العبد أجاب ، وإذا سئل به أعطى . أى أن التوسل بهاتين الصفتين (الحياة والقيومية) لهما تأثير على ما يضاد الحياة ، ويضر الأفعال . فتصبح الحياة سهلة سلسة هادئة مستقرة ، فيحدث بذلك الهدوء والاستقرار النفسى .

كما يذكر "ابن القيم " ما أشار إليه "ابن[١] مسعود" من قيمة القرآن الكريم وأثره فى شفاء ما يصيب الإنسان من هم وغم ، ويؤكد لنا أن الدعاء بالقرآن علاج ناجح بشرط صدق المريض فى استعماله ، فإنه يزيل عنه دائه ،ويترتب عليه إحساس العبد الصادق فى دعائه بالشفاء التام ، والشعور بالصحة والعافية . ويعتمد "ابن مسعود " فى تأكيده هذا على تجربته الخاصة فى استخدام الدعاء بالقرآن الكريم . ويشير إلى أن المسلمين الأوائل كانوا يسعون لمعرفة أسباب ما يصيبهم من الهم والحزن؛ فهذا "أبو[٢] أمامة" يرى أن من أسباب حدوث الهم والحزن ما يحدث فى حياة الإنسان من ظروف وأحوال ماضية توجب له الحزن ، وقد تكون سبب

---

(٢)زاد الميعاد جـ (٣) ص ص (١٥٣ : ١٥٤) .
(٢) زاد الميعاد جـ (٣) ص ص (١٥٥ / ١٥٧).

اصابته بالهم أمر متعلق بالمستقبل يوجب للإنسان إحساسه بالهم .وقد يكون من أسباب حدوث الهم والحزن عدم قدرة الإنسان على تحقيق مصالحه، وشعوره بالعجز ، أو قلة إرادته وإحساسه بالكسل ، أو حبس خيره ونفعه عن نفسه وبنى جنسه ؛فيتولد بذلك عديد من المشاعر والأحاسيس التى تشيع الاضطراب والقلق وعدم الإحساس بالهدوء والاستقرار النفسي - كالجبن ، والبخل وقهر الناس له ...

هذا ؛ كما ذكر أن من أسباب حدوث الحزن والهم ارتكاب المعاصى وشيوع الفساد اللذان يحدثان للإنسان الإحساس بالهم والغم والخوف والحزن . مما يترتب عليه ضيق الصدر واضطراب القلب .

كما يذكر "ابن القيم " أن من بين العوامل الدافعة لزوال الحزن والهم؛ الاستغفار الذى يرفع الهم ويزيل الغم وينقضى الضيق ، والصلاة التى بها تقوى القلوب ، وتنفرج الصدور ، وتنشرح النفس ويتم إحساس الإنسان بالابتهاج . حيث عندما يدخل العبد المؤمن فى صلاته تحدث الصلة بالله ؛ فينعم الإنسان بهذه العلاقة التى تجعله يشعر بالراحة النفسية والابتهاج بمناجاته لخالقه ٠ حيث لا يشغله فى هذه الحالة إلا ذكر الله الذى به تطمئن القلوب .

ومن أجل ذلك نجد أن "ابن القيم " قد اعتبر الصلاة عاملاً هاماً وأساسيا فى حياة المؤمن . حيث يتحقق بها خيره فى الحياة الدنيا والآخرة فلا يصاب بهمٍ أو بحزن ، أو اضطراب وقلق . فينعم بحياته دون خوف من المستقبل ٠ولهذا يرى أن الصلاة قاضية على ما يرتكبه الإنسان من إثم ،

ودافعه لشفاء القلوب ،ومنورة لها ، ومنشطة للجوارح والنفس، وجالبة للرزق ، ودافعة للظلم ، وناصرة للمظلوم ، ومانعة للشهوات ، وحافظة للنعم ، ودافعة للنقم، ومنزلة للرحمة ، وكاشفة للغمة ...

وإذا كانت هذه نتائج إقبال الإنسان المؤمن على الصلاة يؤديها فى خشوع وخضوع لله رب العالمين ، صادقا فى صلته بخالقه سبحانه وتعالى متمنيا وراجيا منه أثناء صلاته العفو والغفران ، وتفريج الكروب . ألا يتم بذلك إحساس الإنسان بالأمن والاطمئنان، والراحة ، والأمان والاستقرار النفسى .

ويعتبر "ابن القيم " أن الجهاد عامل هام من عوامل دفع الهم والغم. ويقصد بالجهاد هنا جهاد النفس التى إذا ما تركت لرغباتها كثر عبسها ، واشتد بطشها فإن ذلك من شأنه أن يزيد همها وغمها وكربها ، ويضاعف خوفها. والأمر يكون على خلاف هذا إذا ما جاهد الإنسان نفسه ، وألزمها بتقوى الله وخوفها منه ، فإن الله يبدل هم الإنسان وحزنه ، فرحا ، ونشاطا، وقوة ، وبذلك يزول همها وغمها وحزنها .

هذا ؛ وقد أشار "ابن القيم " إلى كيفية علاج ما يصيب الإنسان من أرق[١] عندما ذكر شكوة "خالدبن الوليد " - رضى الله عنه مما أرقه – للرسولﷺ وكان العلاج على لسان رسول الله ﷺ عندما قال :" إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم رب السموات السبع وما أظلت ، ورب الأرض وما أقلت ، ورب الشياطين وما أضلت ، كن لى جارا من شر خلقك كلهم جميعا

---

(١) زاد الميعاد جـ (٣) ص (١٥٧).

أن يفرط عليّ أحد منهم أويبغى ، عز جـارك ، وجـل ثنـاؤك ، ولا إلـه غيرك ".

الصرع وعلاجه : " ولابن القيم " رأى فـى موضـوع الصـرع[1] وعلاجه ؛ فقد صنفه إلى نوعين : أولهما صرع الأرواح الخبيثة ، وبيّـن أن من يقوم بعلاجه أهل العلم من رجال الدين ٠ وثانيهما صرع مـن الأخـلاط الرديئة ، وذكر أن من يقوم به أهل العلم فى مجال الطب كما ذكـر سـبب حدوث الصرع ؛ بأنه يحدث نتيجة تسلط الأرواح الخبيثة والشريرة أو بسبب قلة التدين ، وضعف القلب وخرابه ، وكذلك بسبب اللسان وما ينطق به .

وقد بين أن علاج النوع الأول يكون بقوة النفس - لكل من المريـض والمعالج -وصدق توجه الإنسان المؤمن إلى فاطر هذه الأرواح وبارئـها ، والتعوذ الصحيح الذى تواطأ عليه القلـب واللسـان . أى أن يكـون قلـب الإنسان المؤمن عامراً بالإيمان قوياً بالتوحيد والتوكل ، والتقوى .. حتى إذا أقدم المعالج على عمله وهوعلى هذا النحو من قوة الإيمـان فإنـه يكتفـى بقوله - لتلك الأرواح الخبيثة - اخرج منه ، أو بقولـه : "بسـم الله "، "لا حول ولا قوة إلا بالله " ٠ كما ذكر "ابن القيم " أن النبى ﷺ كان يقـول : "اخرج عدو الله أنا رسـول الله ". وكان العلاج يتم بتلاوة أيـة "الكرسـى" و"المعوذتين " .

أما النوع الثانى فيتم علاجه عن طريق أهل العلم من الأطبـاء بمـا لديهم من معلومات علمية ذات ارتباط بمجال الطب . وقد أورد تحديد علـة

---

(١) زاد الميعاد جـ (٣) ص (٩٨)

حدوث هذا النوع صرع – الأخلاط الرديئة – وبين كيفية حدوثه ، ومظاهر وجوده .

هذا ؛ وقد أورد"ابن القيم "عدداً من الأسس اللازمة والضرورية لعلاج الصرع منها ؛ مدى قوة النفس وانفعالاتها فى شفاء الأمراض وصدق الإيمان وعمقه لدى المعالج ، والدعاء الخالص لوجه الله، والتوكل عليه فيما قصد . كما أشار إلى أنه قد جرب ما تقدم من كيفية علاج الصرع وقد أثبتت هذه المحاولات نجاحها .

ومما تقدم من عرض سريع لبعض الدراسات النفسية عند "ابن قيم الجوزية " يتضح أنه قد تناول بالدراسة والتوضيح كثيراً من العوامل النفسية التى اهتم بها علماء النفس المعاصرون . حيث تحدث عن النفس ومفهومها ، وبيان صفاتها . وتعرض لبيان أنواع النفس البشرية . كما تناول كثيراً من المتغيرات أو العوامل النفسية بالبحث والدراسة والبيان ؛ كالتفكر والتذكر ، والاغتراب ، والطمأنينة ، والقلق ، والغيرة ، والرضا ، والثقة ، والفراسة .

ويعرض أيضا لبيان كثير من العوامل النفسية التى يمكن تصنيفها تحت عنوان "الانفعالات" ؛ كالحزن ، والفرح ، والسرور ، والشوق ، والخشوع ، والوجل ، والإشفاق ، والحياء ، والخوف ، والخشية ، والهيبة.

وذكر لنا بعض المتغيرات التى يمكن تصنيفها تحت عنوان "الدوافع"، منها الرهبة ، والرغبة ، والرجاء ، ووضح الفرق بين كل منها وذلك عن طريق إظهار الفروق الدقيقة بين هذه المتغيرات الثلاثة . كما تبين

-أيضا- أن "ابن القيم " كانت له وجهة نظر فى تفسير الأحلام .

هذا ؛ وقد تناول موضحا كيفية علاج كثير من الحالات النفسية التى يمكن أن تنتاب الإنسان فى حياته كالوسوسة ، والغضب ، وحالات الكرب والهم والحزن والغم التى قد تصيب الإنسان بسبب ظروف الحياة ومتغيراتها . ثم ذكر أن المسلمين الأوائل كانوا يسعون لمعرفة الأسباب الكامنة وراء ما يصيب الإنسان من الحالات النفسية السابقة الذكر .

وقد بين الوسائل التى يمكن أن تعين الإنسان على التغلب على هذه الحالات وفى مقدمة هذه الوسائل التى يمكن استخدامها للقضاء على الحالات النفسية التى قد تصيب الإنسان فى حياته . كاستخدام الوضوء أو القعود والاضطجاع إذا كان الإنسان واقفا فىحالة الغضب . فضلا عن الإستعاذة بالله من الشيطان الرجيم . مقدما الصلاة والوقوف بين يدى الله كوسيلة هامة وأساسية للخروج من الحالات النفسية التى تنتاب الإنسان .

وذكر كذلك أهمية قراءة القرآن الكريم ، وذكر الله وإدراك القلب لحقيقة الربوبية لله سبحانه وتعالى ، وأثر ذلك كله فى ازالة ما قد ينتاب الإنسان من الهم والكرب والحزن والغم . هذا ؛ ويعتبر "ابن القيم " أن الجهاد من العوامل الأساسية التى تعين الإنسان على دفع الهم والغم الذى قد يصيبه فى حياته ٠ ويبين أن الجهاد الذى يعنيه هو جهاد النفس . موضحا أن الإنسان إذا استطاع أن يجاهد نفسه ويجعلها تدرك تمام الإدراك حقيقة الحياة لاستطاع أن يقضى على ما يلحق به من هم وغم وحزن . بالإضافة إلى بيان كيفية

إزالة ما قد يصيب الإنسان من حـالات الأرق وعـدم النـوم .

هذا ؛ وقد تحدث عن الصرع وأنواعـه ، وكيفيـة التغلـب عليـه ، وما يستطيع أن يأخذ به الإنسـان المسـلم مـن الأسـباب التـى تجعلـه يشفى مما يصيبه من الصرع ، منطلقا فى هذا كلـه مـن وجهـة النظـر الإسـلامية .

المراجع

- ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين جـ (١) ، تحقيق محمد حامد الفقى . مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م

- ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين جـ (٢) ، تحقيق محمد حامد الفقى ،مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥هـ/ ١٩٥٦م

- ابن قيم الجوزية : مدارج السالكين جـ (٣) ، تحقيق محمد حامد الفقى .مطبعة السنة المحمدية ، القاهرة ١٣٧٥هـ / ١٩٥٦م

- ابن قيم الجوزية : كتاب الأرواح ط (٤) مجلس دائرة المعارف العثمانية حيدر آباد الدكن ، الهند : ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م

- ابن قيم الجوزية : زاد الميعاد فى هدى خير العباد ، جـ (٢) مكتبة الحلبى القاهرة : ١٩٧٠ م

- ابن قيم الجوزية : زاد الميعاد فى هدى خير العباد جـ (٣) مكتبة الحلبى القاهرة : ١٩٧٠ م

- ابن قيم الجوزية : طريق الهجرتين وباب السعادتين ، النهضة الإسلامية القاهرة : ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩م

- أبو إسماعيل عبد الله الأنصارى الهروى : منازل السائرين ، تحقيق الأب س. دى لو جيه دى بوركى الدومنكى مطبعة المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية ، القاهرة :١٩٦٢ م

المحتويات

رقم الصفحة